أنور العنسي

مبدعون من اليمن

❖ منارات ❖

أنور العنسي

مبدعون من اليمن

❖ منارات ❖

© دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة

❖ إهداء ❖

كم قلتُ لابنتي

غداً نعود يا "خلود"

لدارنا والأهل والأحباب

لكن كل يوم

تنأى البلاد

والعمر ينقضي

وغربتي تطول

فلتقرئي عمّن نكون..

هذا الكتاب!

المحتوى

المقدمة 4

المقالح .. رائد التنوير والحداثة 6

البردوني .. الرائي الكبير 10

مطهر .. العالم العاشق 15

دماج .. الرهينة الحر 18

صبرة .. تاريخ من التاريخ 21

زيد .. أزْيدُنا وأمجدُنا 24

غانم .. أستاذية العاشق 27

محمد أنعم .. الألم باسما 29

علي زيد .. الموسوعة تسير على قدمين 32

اللوزي .. صديقي الشاعر 34

عبدالودود.. المبدع الواهم 36

عبدالباري .. قصيدة النثر الكبرى 39

آمنة .. فيلسوفة الضوء واللون 41

الرازحي .. أنا الآخر 43

عبد اللطيف .. الربيع الذي مَرّ 45

عمر .. الواحد المتعدد 47

ابن منصور .. فقية اللغة والشعر 49

الغابري .. المؤرخ الفوتوغرافي 51

الوادعي .. حرقة الأسئلة 53

منصور هايل .. الشاعر المستتر 55

مقدمة

مبدعون كبار من اليمن المجهول، مرّوا في حياتي، وعبرتُ في حياتهم، كانوا الأهم بين كل من مرَّ في زمني، وكل ما مضى في عصرهم، كنت الشاهد الأهم في حياتهم، مثلما كانوا الشهود الكبار على أحداث عصري، كأنهم كانوا أناي، أو أنني كنت هُم.. عاشوا غرباء مثلي، قبلي، ومعي، وربما بعدي في زمنٍ غريب. عرفتهم في زمنِ عصيبٍ، لكنني عرفت صميم من كانوا حيث كانوا أنا، وكنت على ما أتصورهم، هم في تطلعاتهم، هم من كانوا يريدون بوعيٍ أن يكونوا.

لا أفضلية في ترتيب نصوص هذا الكتاب، ولا لأسماء من كتبت عنهم، ولا لدرجة قُربي أو بعدي من أي أحد منهم، فكلهم منارات ورموز وأعلام، مع أن عدداً كبيراً وصفاً عريضاً آخر في كل البلاد، وفي عمق التجربة الإنسانية فيها لم يحالفني الوقت ولا الظروف للكتابة عنهم.

الاعتبار الوحيد في انتخاب هذه الأسماء والأصوات لموضوع الكتاب ليس البحث النقدي في شعرهم وقصصهم وفنهم؛ لكنه لوصف الجانب الآخر من حياتهم كأشخاص في حدود معرفتي الشخصية والإنسانية بكل منهم.

ثمة أسماء كثيرة التقيتها في حياتي الصحفية والأدبية، لكنني لم أجد الثقة في قدرتي على الخوض في الجانب الإنساني من حياتهم، فالأستاذ عبدالله عبدالوهاب نعمان (الفضول) مثلاً، كان مصدر إلهام لي في وطنياته التي صارت إحداها نشيداً وطنياً لليمن بعد توحيده، وفي غنائياته البديعة العذبة، لكنني لم أكن قريباً منه جيداً، ولم أكن من ناحية أخرى لسخريته الزائدة، الحادة، الناقدة لفضول شاب في سني وغيري حينذاك.

كتب "الفضول" في حياته نصوصاً شعرية وسياسية مفتوحةً ومبهرة، لكنه نفسه كان نصاً عجيباً هائلاً، كان النص الأهم الذي لا يمكن فتح مغاليقه، لعله تماسك بقوة بعد أن فتح عينيه في بواكير شبابه على قضية إعدام والده المناضل الكبير عبد الوهاب نعمان خلال العهد الإمامي البائد، ولقد كانت المعضلة بالنسبة لي أنني التقيته في فترة ما من حياته حيث كان قد أصبح ساخراً من كل شيء ويعتبر الحياة ضرباً من العبث.

كذلك كان الحال مع الراحل إبراهيم الحضراني، الشاعر المُقِل، المُجيد، الضاحك، الساخر دوماً، الذي لم يكن ليكرر طرفة، بل كان مستودعاً من الطرائف الظريفة الساخرة .. أتصور كذلك أنه هو الآخر توصل إلى فلسفة خاصة بأن الدنيا ليست أكثر من مسرحٍ عدمي كبير. هذان مثالان لمبدعين كبيرين لم ألتحق بمعرفتهما في مراحل الحلم والطموح، التي عاشوها بكل ما ينبغي لكاتب أن يعتقد أنه عرفهما عن قرب.

تحضرني ذكريات كثيرة عن شعراء ومبدعين آخرين عرفتهم في حياتي لكنها لم تكن لتؤسس لتجربة خاصة ثرة بمعانٍ إنسانية ذات قيمة تسمح بالاقتراب جيداً من شخوصهم، فهناك من كان صاحب القصيدة الوحيدة في حياته، وهناك صاحب النص المُتكسب من وراء إبداعه، وهناك المبدع المُسيس.. إلى آخر ذلك من تلك النماذج!

بعض هؤلاء الشعراء الأفذاذ، أصحابي الكبار، أقرب المقربين إلي، غادرني بعضهم بغتةً، وافترقت عن البعض الآخر فجأة دون وداع، ومنهم رفاق قلم، وشركاء حلم، أمثال محمد حسين هيثم، شوقي شفيق، أحمد ضيف الله العواضي، حسن عبدالوارث، على الحضرمي، ميفع عبدالرحمن، أحمد الشرعبي، على المقري، محمد على اللوزي، نبيل السروري، عبدالفتاح عبدالولي، عزالدين سعيد، والقائمة تطول بأسماء البقية.

صحيح أن هذا الكتاب قد يكون نصاً انطباعياً إنسانياً خالصاً كتبته بمحبة عقل، وبصيرة قلب عن أشخاص عرفتهم لكنه ليس موضوعاً عاطفياً أيضاً، ففي ثناياه التنوع الموضوعي في النوع ما بين الشعر والرواية والقصة والفنون الإبداعية الأخرى، وخريطة مصغرة لكل مساحات الإبداع في مختلف أرجاء البلاد.

الخلاصة أنني هنا كتبت بضميرٍ مطمئن عن مبدعين تركوا في حياة جيلي أثراً حقيقياً عشته وتأثرت به، لا أقول إن هؤلاء وحدهم، هم مبدعو اليمن في العقود الخمسة الأخيرة، لكنهم كانوا الأقرب مني إلي، الأكثر أثراً وتأثيراً في ما تركوه من مشاعر في وجداني وضميري، أصحاب البصمة الأكبر والأدق والأوضح إلى أمدٍ بعيد في وعي جيلنا، جُلنا، كلنا، وأجمعنا.

جولديرز جرين / لندن / 22.5.2020

المقـالح.. رائد التنوير والحداثـة

بعد دقائق من زيارتي إلى منزله في القاهرة، وتسليمه كيساً صغيراً من قهوة "البن" اليمنية الشهيرة، ورسالة من صديقه "عبدالعزيز المقالح" استوقفني الشاعر المصري الراحل "صلاح عبدالصبور" بعبارة "استنى شوية يا ابني"، ذهب بعدها صلاح لإعداد فنجانين صغيرين من القهوة، فأعطاني بذلك فرصة لاختلاس نظرة إلى جملة صغيرة في رسالة المقالح إليه: "أرسل إليك هذا بمعيّة أحد أذكى التلاميذ وأنجبهم"، ولحظتها أدركت لماذا استوقفني الرجل.

عاد صلاح الذي كان يتعافى من بعض التوعك، وبعده جاءت بالقهوة زوجته الفاضلة "سميحة غالب" وأفصحت لي عن سعادة صلاح بلقاء أحد خلصاء صديقه عبدالعزيز، قالت لي في تلك اللحظة إنني أجلس على ذات الكرسي الذي كان يجلس عليه عبد العزيز لسنوات مع صلاح، ومعهما الكثير من "رواد" الحداثة الشعرية العربية، حينها وعيت أكثر مما كنت قد عرفته عن عبدالعزيز.

ومن وفاء الزوجين الجليلين، صلاح وسميحة مما قد لا يعرفه عبدالعزيز أنهما أطلقا على ذلك المقعد في ركن منزلهما اسم "كرسي المقالح"، أو "الكرسي بتاع عبدالعزيز" كأنهما لم يكن بوسعهما تخيل أن عبدالعزيز

غادر البلاد نهائياً بعد أن قرر الرئيس المصري االراحل أنور السادات ترحيله من البلاد على خلفية موقفه المعارض لزيارته للقدس، وتوقيعه لاحقاً على معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

ظل ذلك الكرسي محتفظاً برائحة المقالح، وكان الجلوس عليه أشبه بتكريم من قبل صلاح لزواره، لكنني كنت لا أريد العودة للجلوس عليه كلما دعاني صلاح إلى ذلك بعيداً عن مكتبه في مؤسسة "روز اليوسف"، ذلك لسبب واحد وهو أنني كنت أريد الخلاص من تصور كهذا لدى عبدالصبور عن علاقتي بالمقالح، فأنا في النهاية واحدٌ من آلاف ممن تتلمذوا على يديه، ولست ابنه أو جاهزاً للرد على كل أسئلة عبدالصبور عنه، ماذا يفعل؟ مع من يجلس؟ وكيف يقضي أوقاته في صنعاء؟

لقد كنت في ذلك الوقت من حياتي، وفي حضرة شعراء كبار من أمثال عبدالصبور بحاجة لأن أذهب إلى ذاتي، إلى أنور العنسي، متخففاً من ظل المقالح على صورتي لدى أصدقائه الشعراء والأدباء والكتاب الكثر الكبار في مصر، لكنني فشلت في هذا المسعى لفترة من الزمن، وظلت صورته وصوته مطبوعان على ملامحي، وفي نبرة صوتي، وطريقتي في الحديث، كما سمعت هذا لاحقاً من صديقه الشاعر المصري الراحل فاروق شوشة في حديث بينهما في صنعاء.

غير أن العلاقة مع الرجل ظلت شائكة، فعبد العزيز الجميل، الأنيق، القوي، المتمكن، علماً وجمالاً وأستاذية في النقد وعلوم الأدب الذي تقرؤه في كتبه ودراساته وأبحاثه، كان لا يبدو أحياناً أنه هو عبدالعزيز نفسه الذي تخالطه في حياته اليومية وتجلس معه، شأنه في ذلك شأن عشرات من المبدعين الكبار.

قد تغضبه هذه الملاحظة لكن الحقيقة أنه كان كذلك، عملاقاً في فكره وعطائه وإنتاجه، لكنه كان لسبب لا أفهمه غير ذلك في تعامله مع من حوله خصوصاً عندما كان بإرادة منه أو بدونها يحيط نفسه بأناس ما كان يجب أن يكون لهم في مكانه مكان.

لقد كان يبدو لي متناقضاً، ودوداً ولدوداً معاً، قريباً منك وبعيداً عنك في نفس الوقت، إلى آخر ذلك من المنحنيات التي لا يمكن شرحها في مقال أو يحيط بها كتاب.

حاولت إقناع نفسي أن آخذ منه ما يفيد وأترك ما لا يفيد، أن أنظر بعينٍ مفتوحة إلى ما يهم فيه، وأن أغض الطرف عما لا يهم، لكن المشكلة أن الرجل أسرني بمنهجه في التفكير والعمل إلى حدٍ أخذ من تلميذه "النجيب" سنواتٍ، بل عقوداً للفكاك منه.

كاد اللقاء اليومي معه أن يصبح نوعاً من البروتين الثقافي الذي يلزم عليك أن يتغذى عليه عقلك كل يوم، فالصحف والمجلات والإصدارات الثقافية العربية الجديدة لا يمكنك أن تراها إلا في مجلسه، بل المقالح نفسه لا يمكنك أن تراه جيداً إلا في مجلسه، لكن التخلي عن هذا المجلس اليومي لا يصيبك بالوجع فقط، بل بالشعور بالتراجع والجهل بمستجدات المشهد الثقافي حول العالم، والإحساس بالسباحة خارج الجاذبية، فمجلس الرجل عامر في الأغلب بمثقفين يمنيين وعرب وأجانب أحياناً لا يمكنك تفويت فرصة اللقاء بهم.

عدت إلى صلاح عبدالصبور بعد حين من الدهر قبل وفاته لأفهم منه تلكم التعقيدات في العلاقة مع المقالح، تحدثنا في أمور "الحداثة" وهمومها، وفي كل مرة معه أو مع عبدالعزيز لم أكد أعرف من هو صلاح ومن هو المقالح، فقد كانا يشبهان بعضهما عقلاً وشكلاً إلى حد يتعذر تصوره.

لم تكن تلك مجرد علاقة شخصية فحسب، بل صداقة مشروع، رفقة همٍّ اشتغلا عليه معاً، وأمضيا عشرات الساعات والأيام للبحث والنقاش حوله مع غيرهما ممن شاركاهما ذلك في ركن منزل صلاح.

من المؤكد أنهما أحدثا فتحاً مهماً في تاريخ الحداثة الشعرية، مع الاحترام التام لما مثلته الحالات الفردية السابقة لبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي، وسعدي يوسف وغيرهم، وتالياً لنزار قباني وأدونيس وسواهما.

تأكد لي أن المقالح وصلاح فعلا ذلك بشكل منظم، وممنهج، ومدروس، ففي سنوات لاحقة تعرفت إلى ضلعهما الثالث "أحمد عبدالمعطي حجازي" الذي كان مقيماً حينذاك في باريس لأسباب قد تكون خاصة بحاجته إلى حرية البحث والسؤال، تحدثنا طويلًا، أجريت معه أكثر من حوار تليفزيوني عميق وطويل، لكنني أدركت أن منهج حجازي هو نفسه نهج المقالح وعبدالصبور أيضاً مع بعض الاختلافات الطفيفة.

في لقاءاتي الأخرى المنفردة مع الثلاثة في كل من القاهرة وصنعاء وباريس وجدت صعوبات بالغة في فصل كل منهما عن سواه.

لم أشأ أن أذهب إلى مقارنات بين ظروف الولادة والنشأة والتعليم لأفهم "سر" هذا التوافق أو لمعرفة من كان الأكثر تأثيراً في الآخر، لكن خلاصة ما خلصت إليه أن الكل كان صاحب تأثير على الآخر بدرجة لا يمكن عدم إدراكها.

أما لماذا كنت مهموماً بتفسير هذه القصة فلأن عبدالعزيز قاد في حياتنا في ذلك الوقت طوفاناً من التغيير على أكثر من مستوى، من التعليم إلى الشعر والثقافة عموماً.

لم يكن لنا في تلكم الأيام بحر، لكن عبدالعزيز كان محيطنا، بحرنا، نيلنا، دجلتنا والفرات.

ربما تساءل البعض عن سبب عدم منح المقالح جائزة "نوبل" للآداب قياساً على عطائه الغزير والوافر المتنوع لأكثر من نصف قرن، وَلَكِن أكاد أتساءل، ما هي "نوبل" أساساً؟ هذه الجائزة لن تزيد من قدره، بل إنه هو نفسه "جائزة كبرى" للحياة، للثقافة الإنسانية بمختلف فروعها.

لم يفلح عبدالعزيز في وضع أغلب من يثق بهم في مفاصل النظام السياسي لإحداث التغيير الذي كان يريد لكنه جسد ذلك وحدَه بدأبه ومثابرته رغم قسوة الظروف التي تتالت عليه في الكتابة بعقلانية مقبولة، وبانتظام في الصحف الرسمية لعقود طويلة، وفي الجامعة خلال رئاسته لها، وفي مركز الدراسات والبحوث حيث لم يتبن تخليق عشرات الأفكار فقط بل تحول هذا المركز إلى ترسانة من المعرفة، وإلى كتيبة متقدمة من المثقفين العقلاء وعشاق الحكمة والحداثة والعلم.

لعبد العزيز أرفع القبعة احتراماً، والمعذرة لما قد يبدو تجاوزاً من تلميذه عليه.

البردوني.. الرائي الكبير

في نهايات البحث عن أجوبة للحكمة من وراء الوجود، وفي قراءة ما يمكن قراءته مما تبقى من شموسِ الأزل على تلك الصخور، كان "عبدالله البردوني" يتأهب عند تلك التخوم متحضراً للعودة بالجواب.

تدهشني كثيراً تلك العناوين الذكية التي اختارها "جوَّاب العصور" بعناية لدواوينه، وقد كانت كذلك في ما تعنيه "ترجمةً رملية لأعراس الغبار"، و"وجوه دخانية في مرايا الليل" وغير ذلك.
لكن الأكثر صعوبة من هذا كيف أترجم على الورق ضحكات أستاذي وصديقي، ضحكاته الصادرة من القلب، قلب طفل كبير، الأكثر رقة من حكايات مياه جرت ضاحكةً في السواقي.

فقد الرجل "صورة" كل شيء بعد السنوات الأربع الأولى من عمره، بعد أن أصيب بوباء "الجدري" في بواكير صباه، لكنه احتفظ في مخيلته بأكثر مما احتفظ به عشرات بل ملايين المبصرين، بملايين من الصور والأحاسيس والألوان والروائح والأصوات في وعيه بالأمكنة وكل المدركات الأخرى، وبكل ما يمكن أن تحتفظ بوعيه كل الحواس.

كان لا يعنيني أي شيء أكثر من ذلك مما أدركه في تاريخ الحياة، وفي سرده الخاص لأزمنة الإنسان.
انشغل عبدالله البردوني طويلاً بكيفية تبسيط اللغة لتصبح أداة لتفعيل فضول العقل، وأعتقد أنه نجح في ذلك إلى حد أن جعل السؤال مناطاً للبحث، والبحث طريقاً إلى المعرفة.

في أحاديثي الطويلة القليلة النادرة المهمة معه، كان يبدو لي البردوني القادم من حنايا أكثر الجبال قسوة وتجلداً وصعوباً في قرية "البردون" بمديرية الحداء بمحافظة ذمار اليمنية إنساناً يتلقف الأسئلة ببراءة أرنب، بوداعة غزال لكنه سرعان ما يرد عليها بذكاء سنجاب، مازحاً، ساخراً، متدفق الأفكار، حقيقياً تماماً، صديقاً كأنك تعرفه منذ زمنٍ، زمنٍ طويل!

أكثر الأمور إثارة للدهشة في قصة هذا الرجل هي كيف خرج من صخور "البردون" الجرداء في الحداء إلى يابسة ذمار القاسية، ثم إلى "منزلة الفليحي" الفقيرة بمسجد في صنعاء رجل بهذا العقل العبقري، مدركاً طريقه بوضوحٍ إلى حيث يريد لم يدركه آلاف المبصرين غيره لا قبله ولا بعده.
التقيته غير مرة في صنعاء وبغداد ودمشق وأخريات من العواصم دون انتظام، لكن المثير في الأمر أنه كان يدركني في كل مكان، كان تبريره لذلك دائماً أنني أحتفظ في دمي ببعض من "نحس" أو"بؤس" بيت العنسي الذين عرفهم في صباه عندما كان يدرس في ذمار، وكان سؤاله المتكرر لي "كيف خرجت من هذا البيت"؟ وكان جوابي الجاهز عليه دائماً "مثل حكاية خروجك من بؤس البردون".
كانت بعد هذه الدعابات دعابات، أيقنت بعدها أن لهذه الحكاية مع الرجل حكايات، رفقة، وصحبة، امتدت على ندرتها لسنوات.
حرصت بعد ذلك على لقاءات أخرى مع الرجل في حدود ما سمح به وقته ووقتي، كان ذلك للأسف يتم خلال أوقاتٍ متباعدة امتدت أحياناً لسنوات، لكن البردوني ظل هو، وأعتقد أن محبتي له كمبدع عظيم أصبحت أكبر، بل إن البساط بيني وبينه صار أحمدياً، كما يقال، أي أنه كلما ازدات الصداقة عمقاً تسقط بعض شروط التأدب في التعامل بين صديقين.

في أحد أكثر أحاديثي معه عمقاً في دمشق سألته بتهكم، لماذا لم يُخلق كل البشر أذكياء، فأراد استيضاح الأمر أكثر، فكان ردي عليه أن قبيلة الحدا تاريخياً كانت جحافل من المقاتلين الشجعان منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، وحتى مرحلة الدفاع عن الثورة والجمهورية في اليمن في ستينيات القرن الماضي، لكن أحداً لم يكن ليدرك إلى أين يذهب مثلما فعل البردوني ذلك دون أن يخوض أي معركة، فكان رده مازحاً "هات لي واحداً من بيت العنسي" مثلك.

مرت السنوات والتقينا مرةً أخرى في تونس عندما كان "البشير بنسلامة" وزيراً للثقافة إن لم تخني الذاكرة، وقد أكرم وفادته، وحينها أردت انتزاعه منه إلى حوار أكثر جرأة في ردهة فندقه.
أخبرته بدايةً أنني شديد الإعجاب بقدرته على التلاعب بتقنيات اللغة، وأنني أرى فيه لاعباً بهلوانياً ساحراً تجري اللغة وليس الشعر فقط بين أصابع يديه مطواعة، رقراقة كالماء.
وحين كنا نسير في حديقة الفندق مازحته بأنني لا أرى فيه "مبدعاً" للمعاني بل "مجدداً" ومطوراً لها.
استهوته الفكرة وطلب المزيد من الإيضاح، فذكرت له قول الشاعر: "إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة .. وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم" مقارنة مع قوله: "فظيع جهل ما يجري .. وأفظع منه أن تدري"، والعجيب أن رده كان هادئاً، فيه جواب ومجاملة معاً.. سألني هل قرأت الرسالات الإبراهيمية الثلاث؟ قلت له "نعم" فقال: ألا تجد فيها تواتراً وتكراراً؟ قلت له "نعم" أيضاً، وقد كان جوابه أن إعادة طرح السؤال بطريقة أخرى هو بحد ذاته إعادة توليد وتخليقٍ لمعناه.

كان البردوني شاعراً بما لا يمكن وصفه، جماهيرياً في وعي الناس إلى درجة أن القاعات كادت تخلو بمجرد انتهائه من إطلالاته عليهم، وكأنه ليس بعد كلام البردوني كلام!

كنت في ذلك الوقت شاباً متحمساً بشدة لمدرسة "الحداثة" التي أسسها عبدالعزيز المقالح، وقد تجرأت في ذلك الحين بنشر مقال نقدي هاجمت فيه البردوني فأغضب الدولة والحكومة و"مختلف قطاعات

المجتمع" التي تحترمه بما فيها المقالح نفسه، ومن الغريب أن "الحل" حينذاك جاء من قبل البردوني نفسه الذي دعاني في اتصال تليفوني من مقر عملي في التليفزيون إلى لقاء في اليوم التالي في منزله.

أوضحت للرجل أنني لا أمانع في الذهاب إليه والحوار معه، لكن الخلافات الفكرية لا يمكن حلها بهذه الطريقة.

في نهاية ما انتهينا إليه أن ذلك كان نهاية خدمة كان لا بد منها من رئاسة الملحق الثقافي في صحيفة " الثورة" الذي كنت أرأسه، لكن البردوني كان أكثر كرماً من مؤسسة الدولة، فقد كنت أزوره كلما سمح الوقت وساعدت الظروف.

ما أفسحه لي الزمن أنني حظيت بصداقة مبدع مهم كالبردوني، استأنسي، وأدرك فيّ ما لم أدركه فيّ، وأفدت كثيراً بصحبته في مناسبات ثقافية لاحقة، صحيح أن لقاءاتنا لم تكن كثيرة لكنها كانت على قلتها مهمة، كانت تثاقف عقل بعقل، وجدل سؤال مع آخر، يفضيان في النهاية إلى مالا نهاية له في فضاء لا فضاء له من التساؤل!

لا أزعم أنني أفلحت في استدعاء هذا العملاق إلى المربعات التي كنت أعتقد أنني أتسيدها، لكنني أزعم أنه نجح في استخراج الأسئلة التي كان مهتماً بالإجابة عليها من شابٍ في ظروف عمري، وأعتقد أنه رد لاحقاً في بعض أعماله التالية عليها سواء الشعرية أو التنظيرية التي بسطها بالتوضيح في آخر نصوصه الشعرية أو بالشرح في كتابه "اليمن الجمهوري".

بالتأكيد لم يكن البردوني يبدو لي مؤرخاً سياسياً، ولا أدري لماذا أقحم نفسه في هذا، لكنه كان "شاعراً" عظيماً لا ينازعه في شعريته أحد.

على الصعيد الإنساني الخاص ظلت علاقتي بالبردوني أكثر من إنسانية، وخاصة حيث لم أخذله يوماً في حياتي بأي شيء طلبه مني أياً كان نوعه مما لست بحاجة للحديث عنه.

ظلَّ البردوني يعتبرني "أخاً لمن لا أخ له" وأيضاً كما كان يقول: "أخ النجدات"، والحقيقة أنني لم أكن كذلك إلا بقدر ما استطعت، لكن الواقع هو أنني ببساطة وتواضع لم أكن أتخيل حينذاك حياة أدبية في اليمن بدون البردوني.

الأكثر إثارة فيه أنه كان يتمتع بأكثر من ذاكرة واحدة، بل كان لكل حاسة عنده ذاكرة لوحدها، كان يتذكرك باللمس، بالرائحة، بالصوت، وبكل شيء تقريباً.

كان البردوني، فاقد البصر، حاضر البصيرة، قارئاً مذهلًا بـ"السماع" فقط، كنت أحد من قرؤوا له بعض مختاراته ولكن دون انتظام أو التزام.

في المرات المتباعدة زمنياً حين كنت أذهب إلى منزله، كان يدهشني بقدرته على قراءتي من دون أن أنبس بكلمة، ولكن بمجرد إمساكه براحة يدي، كانت لديه قدرة خارقة على القراءة باللمس والرائحة، فضلاً عن سماع الصوت وغيره.

الأكثر غرابة من ذلك أنه كان يأخذني إلى داخل منزله، ويتوقف بي فوراً عند أحد رفوف مكتبته، ثم يلتقط كتاباً لم ينته منه، ويفتحه صفحةً، صفحة ويقول لي إقرأ لي من هنا!

كان البردوني يتراءى أمامي مثل سهل منبسط، واد أخضر متاح، بلاد تعرفها لكن من دون القدرة على الادعاء أنني وعيته أو امتلكتها، فهو في كل قصيدة جديدة سهل آخر، وادٍ مختلف، وبلاد أخرى بل وعالم جديد مختلف.

كان أكثر ما يدهشني في البردوني أنني كلما قرأته يفر من بين أصابعي كالوقت إلى أزمنة أخرى من معرفة أوسع يصعب إدراكها وتتعذر ملاحقتها.. كيف كان له كل ذلك الحضور في كل العصور؟ ذلك ما لم أتمكن من الحصول على جواب عنه.

مطهر.. العالِم العاشق

طوال عشرتي مع اللغة، وقراءاتي في فن القول وعلم الجمال لم أجد نفسي ذات يوم أمام امتحان لـ"مستوى" من اللغة يكفي لوصف رجلٍ كان جبلاً من الكلمات، وسماء من أبلغ البلاغات مثلما أجد نفسي اليوم.

لطالما شعرت بالتفوق في حياتي بالاحتفاظ بكيمياءٍ من نوعٍ إبداعيٍ وإنساني خاص مع "مطهر الإرياني" بعيداً عن شوائب العلاقة المعقدة والمتشعبة بين أسرتينا وصورة بعض آل الإرياني في الموروث الوطني والشعبي كحكام أو مقربين من الحكام.

عندما ذهبت إلى دارٍ في حي "عين الرمانة" في دمشق ذات يوم رمضاني للقاء عمه رئيس البلاد الأسبق "عبدالرحمن"، لسماع القول الفصل منه حول خلاف نشب حول دستور دولة الوحدة الناشئة عام ١٩٩٠، كان ذلك أفضل فرصة أتيحت لي في حياتي لتقليب تراب روحه، وللنبش في أضابير ذاكرة هذا الرجل "الاستثنائي" حول أمور أخرى غير التي ذهبت من أجلها إليه، وقد كان ذلك بفضل التقديم الضافي الذي تكرم به مطهر لتعريف عمه على الفتى الزائر له.

وبدلاً من عشرين دقيقة للقاء الرئيس الطاعن في السن امتد اللقاء لأكثر من أربع ساعات خلع الرجل خلالها جوخه وعمامته و"توزته"، وهي السلاح الجمالي لعلماء البلاد، وأخذني إلى وجبة غداء متنوعة بين التاريخ والأدب والسياسة غير مرتب لها.

زاد هذا الكرم من قبل الرئيس الراحل من قناعتي بأن العلاقة مع مطهر علاقة عقل إبداعية، روحية وإنسانية بامتياز لم أحظ بها مع أي أحد آخر في هذا البيت السياسي الزاخر بالعلماء والمبدعين الأفذاذ بمن فيهم صديقي الراحل يحيى ابن مضيفي الرئيس.

وحين ذهبت مع أخيه رئيس الوزراء الراحل عبدالكريم إلى مأرب شرق البلاد أخذ مطهر بيدي للذهاب عصر ذلك اليوم إلى سدها القديم، وهناك أبهرني بقدرته على قراءة نقوش الخط المسند على جداريات السد، كأنه كان يقوم بترجمة فورية للغة انقرضت قبل آلافالسنين.

لا أريد الحديث عن ملاحم مطهر الشعرية وقصائده الغنائية الخالدة، فلعل الكثير يعرف عنها ربما أكثر مما أعرف، لكني أريد الإشارة إلى مؤرخٍ وعالم آثار كبير استوقفني لسنوات طوال في حياتي بشغفه بعلم الأرض وتاريخ التطور البشري عليها.

عندما ذهبت ذات يوم إلى "أكسوم" على الحدود بين إثيوبيا وأريتريا، أعددت تقريراً تليفزيونياً حول ما التبس عندي من أوجه تشابه بين حضارة سبأ في هذا الجزء من إفريقيا مع ما كنت أعرفه عن الأمر ذاته في اليمن.

وعلى الفور جاءني اتصال هاتفي من مطهر إلى أديس أبابا لتفسير الأمر.

ليس مهماً فقط أن مطهراً كان كذلك، لكن أيضاً أنه تخلى عن زخرف الحياة، زخرف السلطة والمناصب وتفرغ لخدمة عمه الرئيس "الكبير".

استخرج مطهر من ذاكرة عمه أفضل مذكرات تأريخه، بل أهمها على الإطلاق في رأيي في كل ما كُتب عن التاريخ السياسي لليمن في القرن الماضي.

عندما قرر زعيم مصر الراحل "جمال عبدالناصر" أن يضع حداً لمنتقدي تدخله العسكري في اليمن، خدعهم، وطلب منهم المجيء للتشاور في القاهرة، ثم أودعهم أسوأ المعتقلات والسجون، لكن بقية من حياء أجبرته على وضع "الإرياني" الكبير تحت الإقامة الجبرية في منزل خاضع لمراقبة غير صارمة.

وطوال سنوات علاقتي مع مطهر لم نختلف يوماً بخلاف العلاقة مع شقيقة عبدالكريم، حيث كان التعامل معه يتوقف على طقس علاقتي بالرئيس الراحل "علي عبدالله صالح" عندما كان رئيساً لوزرائه، أو وزيراً لخارجيته.

لم أختلف يوماً مع مطهر أو يختلف معي، لكن مطهراً لم يدع للخلاف سبيلاً بيننا كما هي طبيعة البشر، بل لقد كان أسعد أيامنا حين نلتقي في دمشق أو صنعاء وغيرهما، هو بوجهه الستيني الشاحب البشوش، وأنا بوجهي الشاب العاشق، نتأمل في بَعضنا بمحبة واحترام، لم تكن أحاديثنا الطويلة تبعث على ملل أحد منا من الآخر، بل للتشوق إلى معرفة كلانا إلى معرفة ما لدى الآخر من جديد.

قال لي مطهر إنه كان "يطرب" لسماعي عند قراءتي لنشرات الأخبار في تليفزيون صنعاء، ليس فقط لسلامة اللغة وجودة الأداء كما قال ولكن لسماع "صوت مثقف"، وبصراحة فقد غبطت نفسي على هذا الإطراء من "مثقفٍ لغوي" مثل مطهر، وربما كان ذلك سبباً في جعلي كلما أقرأ نشرات الأخبار أشعر أن ملايين من المشاهدين والمستمعين حينها هم جميعاً من أمثال مطهر حساً ووعياً بمعنى الكلام وليس بصداه، وإدراكاً لجماليات الصوت قبل زخرف الصورة.. كم يبعث فيك أمثال هذا الرجل الشعور بتحدي ذاتك لأن تكون أنت الذي يجب أن تكون!

قد تكون لي أكثر من عودة إلى مطهر في سياقات أخرى لكن تركيزي هنا هو على المشترك معه كصديق لم يخلق مثله في البلاد على الرغم من فوارق كثيرة كانت بيننا، السن، أماكن الإقامة، وقبل هذا وذاك منسوب المعرفة العالي عند مطهر مقابل ذلك النزر اليسير الذي كنت أمتلكه أمامه.

لعلي أجزم أن مطهراً أشعل في داخلي بركاناً من الهمة والأسئلة الكبرى، وقدراً من الاستبصار، والرؤية لأبعد مدى في الماضي والمستقبل على حدٍ سواء.

دماج.. الرهينة الحر

ذهبنا جميعاً لصنعاء من كلِّ حاضرةٍ وواد، حملنا إليها قصائدنا، قصصنا، رواياتنا، ولوحاتنا عابقةً بفلِّ الحديدةِ، كاذي عدن، (مشاقر) تعز، عسل جردان،، شذاب ذمار، بخور المكلا، رائحة البرتقال المأربي، أغاني القمندان، وحلاوة رمان صعدة .

لُذْنا بصنعاء شُبَّاناً فقراءَ، لا نلوي على شيء إلاَّ مِن مشاريعنا النشوى وأحلامنا الزاهيات الكبار، نحلم بيمن جديدٍ، ووطنٍ عربيٍ رحبٍ، وعالم إنساني كبير.

كان أحمد قاسم (دماج) قد سبقنا جميعاً إلى ذلك، وكان هو أولَ الحداةِ في سفر أسفارٍ لم تنته، وأقدمَ سراةِ قوافلنا نحو وطننا الأخضر المستحيل.

كان بِدُنُوِّهِ من الأرض أعظمَنا جميعاً، وكان بإدراكه قيمة الالتصاق بها أغلانا قيمةً، بل أعلاناً هامةً وقامة.

وقبل ذلك كان "دماج" هو "الرهينة" الأشهر في سجون الإمامة كما خلدته رواية ابن عمه "زيد مطيع دماج"، وذلك يعني في الذاكرة الوطنية لجيلنا ما يعنيه.

منذ أول لحظة انفك فيها من أغلال سجنه، وخروجه من محبسه، ألقى "دماج" خلفه بندقية قبيلة الكبرى، وخنجرها، ورداءها، وارتدى بدلته "السفاري" متوجهاً إلى عدن ليبدأ منها تسطير قصة مثيرة في الكفاح

ضد الاستبداد الإمامي والاستعمار البريطاني معاً، متخذاً من القلم سلاحاً، ومن العقل وسيلة في مقابل سيف الجلاد.

لم يكتب "دماج" الكثير من الشعر رغم جودة ما كتب لكن حياته نفسها كانت "الكثير" من الشعر، ملحمة في الاستبسال بالفكرة والقصيدة والسياسة دفاعاً عن حرية الإنسان وكرامته.. ملحمة أترك الحديث عنها لنقاد الأدب ومؤرخي السياسة، وأكتفي هنا بما رسخ في وعيي ووجداني عن هذا الشاعر الفذ، صاحب المبدأ الصلب، والعقل المرن القابل للتعامل مع مستجدات الحياة ومتطلبات التغير في زمن متغير.
عندما التقيته لأول مرة ارتسم لدي انطباع بأن هذا هو الأب "الروحي" الملهم، الذي أحتاج إليه للاستمرار في مخاض الحياة بعد الرحيل الفاجع لوالدي في مقتبل عمري.
وضعت يدي في يده دون تردد، وسرنا في ذات الطريق معاً رغم كل الفوارق بيننا، عمراً، وتعليماً، وغير ذلك، فقد كان الأهم أن القيم والمثل المشتركة هي ما تجعلنا واحداً، وأكثر نبدو معها عضلتين في قلب واحد، وفُصّين في عقل مشترك، وجناحين لروح أوحد.

فض "دماج" أكثر من اشتباك بيني وبين بعض متاعب الحياة، خصوصاً مع عدد من الرفاق والزملاء والأصدقاء طوال كل الأزمات التي عصفت بحياتي كلها، المهني منها والسياسي حينذاك، وفي المقابل كنت له على الدوام عصاه، عكازه، والحائط الذي يسند إليه ظهره حين يتعب، وكان لا يتردد بأن يصفني أمام خاصته بأنني عصى موساه، يهش بها الذئاب والأغبياء من حوله.
كان "دماج" لا يبدو قلقاً من أن شهرتي كمذيع معروف في التليفزيون يمكن أن تأخذني بعيداً عن مشروعي الأدبي الذي كان يحثني على الاستمرار فيه، ولا يعتقد أن اقترابي من السلطة سيغير من ميولي الأدبية المتأصلة، كما كان ينافح عني، ولكن عندما خرجت من اجتماع في وزارة الإعلام وصادفته في بوابتها، كان كعادته يرتدي بدلته السفاري المعتادة، بينما كنت أرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق جميلة فسألني ساخراً: "من معي؟ أنور أم رئيس وزراء بلجيكا؟

أدركت حينها خوفه عليّ من أن تتلوث يداي بدسم السلطة، ومن حسن الحظ أنني ذهبت في طريق آخر مختلف بعد أشهر من هذا اللقاء.

مضت السنوات تباعاً وأنا خارج البلاد لم أتمكن من التواصل معه، إلا من خلال ابنته النجيبة الدكتورة سلوى قبل وبعد أن أكملت دراستها في ماليزيا.

أرسلت إلي صوراً لوالدها في أيامه الأخيرة، قائلة إنه يريد سماع صوتك، ثم ساعدتني في الاتصال هاتفياً به، انكسرت من داخلي بحدة عندما سمعت صوته القوي ذاويا، إذ لم أكن أريد ولا أتصور أن "دماج" الطود الشامخ العملاق، سوف يهوي بشدة بفعل الحزن الذي اعتراه في أواخر عمره على انهيار أحلامه الكبار بسقوط الجمهورية بعد العام ٢٠١٤!

صبرة.. تاريخ من التاريخ

محزنٌ للغاية أن كثيراً من أهم الأصدقاء المبدعين الذين عرفتهم ليسوا "طبيعيين" تماماً كما يجب أن يكونوا، يدهشونك مرتين، تارة حين تقرأ ما يذهلك بقوة خيالهم واستبصارهم، واستخدامهم الشعري أو الروائي للغة، وتارة حين تكتشف أنهم أكثر الناس فشلاً في ترتيب معيشتهم، وحتى في إدارة علاقاتهم بمن حولهم.

ينطبق هذا كما أعتقد على الصديق الشاعر الكبير الراحل "علي بن علي صبرة" الذي تعرفت إلى شخصه أكثر عندما كان نائباً لوزير الإعلام خلال عملي قريباً منه حينذاك في تليفزيون صنعاء.

جاء "صبرة" إلى هذا الموقع الوظيفي وما بعده متأخراً، بعد حياة طويلة صاخبة، وتجربة خصبة، امتدت بين العهدين الإمامي قبل ستينيات القرن الماضي، والجمهوري حتى وفاته عام 2009.

في سيرته لا شيء يدل على أنه كان "سياسياً" على الإطلاق رغم تعرضه للسجن غير مرة بسبب رأي سياسي قاله هنا أو هناك، كما لم يكن "إدارياً" بالمطلق، فقد كانت الاجتماعات التي يرأسها في غياب الوزير أشبه بعرض مسرحي هزلي، إذ لا يتم طرح فكرة أو مقترح إلا ويروي ما يشبهه، طرفة أو نادرة من طرائفه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى!

لكن الحق أنه كان "شاعراً" كبيراً محضاً، مدهشاً في تجلياته، مذهلاً في مدحه، موجعاً في قدحه، إنساناً انفعالياً، غضوباً، يقيم الدنيا حين لا يجد في جيبه من المال ما يقيم أود يومه، ويرضى بالقليل منه عند تأمين حياة يومه.

قرأت الكثير لـ"صبرة" قبل معرفته المباشرة، استوقفتني بلاغته، ثقافته اللغوية، مصادر تكوينه التعليمي منذ طفولته حتى أصبح كاتباً في محكمة، وفي مرحلة تالية علاقته بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ بصديقيه "علي أحمد الخضر" الفنان والدبلوماسي الكبير الراحل، وكذلك الفنان والمؤدي الاستثنائي المبدع الراحل "علي بن علي الآنسي"، حيث كوّن الجميع ما عرف حينها بـمجموعة "الثلاثة العلاعلة" أي أن صبرة يكتب القصيدة، والخضر يلحن كلماتها، والآنسي يؤديها، والكل يعمل بإبداعه الخاص على ما يعمل.

لم يكن "صبرة" شاعراً فحسب، بل مؤرخاً لم ير الكثير من أعماله البحثية النور سوى القليل مما نشره في صحيفة "المصباح"، التي أصدرها في مدينة "تعز" قبل ثورة 26 سبتمبر 1962، الثورة التي نفض بعدها يده من حكم الإمامة، واعتبرها "ثورة الله" قبل أن تكون ثورة الشعب وأبطال جيشه كما قال.
وفي مرحلة تالية تولى "صبرة" رئاسة تحرير مجلة "الإكليل" الفصلية التي عنيت بنشر أبحاث مهمة في تاريخ اليمن بمختلف عصوره، لكن هذا المشروع لم يستمر أو يكتمل، فالرجل كان صاحب خيال واسع في اقتراح موضوعات لأبحاث المجلة، ولكن يتعذر إنجازها دون تمويل كاف، وبلا متابعة جادة لتطويرها، كما لم يكن "صبرة" متفرغاً لها كرئيس تحرير مفترض، ولا وقت أو مزاج لديه في أغلب الأحيان لمتابعة ذلك.
أفضل ما في شعره الغنائي أن غنائيته كانت عالية جداً، لدرجة أن لحن الأغنية موجود بوضوحٍ في الموسيقى الداخلية للقصيدة، بحيث لا يكلف الملحن أو المؤدي أي عناء في إنتاجها أكثر من كتابة النوتة وتوزيعها وأدائها.
أما شعره السياسي فقد كان مثار جدل بسبب مبالغاته المعروفة في الثناء أو الهجاء، خلال العهدين الملكي أو الجمهوري، مدائحه لحكام العهدين أو هجاؤه لخصومهم، غير أن ما كان يعجبني في هذا وذاك

هو "الفن" في شعره من حيث بلاغة الصورة، وروعة البيان، ورشاقة العبارة.

لم يكن في جلسات المقيل التي قضيناها معاً في صنعاء أكثر لطفاً من وجود "صبرة" بتداعيات خواطره ونكاته، وسخريته وتلميحاته، وقهقهاته الصادرة من أعماقه، لقد كانت روايته لطرائفه بديعة، وتعجبني أكثر من بعض الطرائف نفسها، إذ كان يعرف كيف ومتى يمهد لروايتها ببراعة، ويستدرج السامع للإصغاء إليها، ثم يباغته بنهاية مفاجئة لها، ثم يختمها بضحكة مدوية لها تجعل المكان كله يستجيب لها.

كان في جلساته يقيم ما يشبه عرضاً من بطل واحد هو نفسه "صبرة" سواء عندما يتحدث جاداً أو عندما يتكلم مازحاً، فهو في كل الحالات من يقود مزاج الحاضرين إلى حيث يشاء، لكنه يذوي في النهاية، ويذهب إلى حيث يذهب، ويستغرق طويلاً في تأملاته، ثم يجمع أشياءه وينصرف.

الأكثر صعوبة في شخصية "صبرة" بالنسبة لي كصديق كانت غيرته من علاقتي ببعض كبار الشعراء الأصدقاء الآخرين الذين كان يرى فيهم منافسين له رغم علمه بأسبقية تجربته وتميزها واختلافها عن تجاربهم، واتساع نطاق الفضاء الإبداعي في النهاية لكل الأسماء والأصوات.

زيد.. أزْيدُنا وأمجدُنا

يأتي إلى الحياة الكثير من الصاخبين ومشعلي الحروب لكنهم ينصرفون ببعض الخزي أحياناً غير أن سواهم يجيء إلى الحياة بصمت، ويمضي بصمت، لكنه يترك وراءه ضجيجاً هائلاً من كتب ودراسات وحتى إبداعات قليلة خلاقة لا يمكن أن يطمرها النسيان.

يستحيل البتة أن يأخذني الهوى، أو تغلب علي العاطفة للمبالغة عندما يتعلق الأمر بالحديث عن أحد هؤلاء، خصوصاً عن روائي صديق من طراز الراحل "زيد مطيع دماج".

هناك الكثير مما يمكن قوله عن فن زيد القصصي والروائي لكني سأقتصر هنا على ملمح شخصي وإنساني لفت انتباهي مبكراً إلى تجربته من خلال علاقتي الشخصية به.

أكثر ما كان يعجبني في زيد أنه كان زيداً فقط لا ينقص منه أي شيء، ولا يزيد على ذلك أي شيء من حسبٍ أو نسب أو مكانة في وظيفته أو مجتمعه وقبيلته وقد كان من كان.

زيد المبدع الجميل كان على الورق هو ذاته زيد الذي تراه على الواقع، إنساناً ينتمي لكل الناس مثلما ينتمون إليه.

أكاد أجزم أنني وَعَيت صراعات اليمن في قصص زيد قبل وأكثر من أن أعرف اليمن في الواقع، وعندما تعرفت إلى زيد نفسِهِ عرفت "الإنسان"، الذي تكتمل إنسانيته بجهدٍ دؤوب على تطوير معارفه وتقنيات الإبداع الإنساني لديه.

عندما عرفت زيداً للمرة الأولى كان ذلك على إفطار متواضع دعاني إليه في مطعم "الرعيني" للكباب عند زقاقٍ صغير في حي "القاع"، أمام المقر السابق لوزارة الخارجية حيث كان يعمل بصنعاء، هكذا كان زيد، وتلك كانت بساطته في العيش.

كان الأهم من ذلك "الصبوح" في ذلك الصباح أنني عرفت كيف ينغمس زيد في التفاصيل الدقيقة لحياة الناس وهو يدخن سيجارته بعد الفطور على كأس صغيرٍ من الشاي الأحمر، ويلتقط ما يريده من الصور، قبل أن ينشغل بقية يومه على إبداع أدوار شخوصه وأبطال قصصه.

أكاد أزعم أنني في أوقات تالية عشت معه ليس مضمون تلك القصص فحسب، ولكن أيضاً مهارته اللغوية في صياغتها.

لطالما احتفظت لنفسي ببعض مسودات قصص زيد أو قصصه نفسها التي كان يعهد إلي بنشرها في الملحق الثقافي لصحيفة "الثورة" اليمنية، الذي أشرفت على تحريره لبعض الوقت في ثمانينيات القرن الماضي.

لم يكن خط يد زيد هو الأجمل فحسب، لكنه كان الأكثر قدرة على الإيحاء بأنه كان يفكر حين يعمل.

لقد كان في خط اليد الذي يسطره زيد على الورق ما يحمل على التأمل أيضاً من حيث كونه يجسد أمثلة على تاريخ الكتابة على الورق، ففيما كنت أعرفه أن من يتقنون فن تشكيل الخط على الورق لا يعتنون كثيراً بجوهر الفكرة التي يخطونها، يصرفهم تفكيرهم في إتقان جماليات الخط عن الإمعان في مضمون الخط، أما في حالة زيد فقد جمع بين الاثنين لدرجة كادت معها قصصه القصيرة حتى مع بعض "التشطيبات" التي كان يدخلها عليها تبدو أشبه بلوحات فنية تبعث على أكثر من انطباع.

كان زيدٌ يرسم بدم القلب وبأحرفٍ من السحر وقائع رواياته وقصصه لدرجة تكاد معها أن تراه بين كلماته وتشعر بدفء أنفاسه بين سطوره.

لا أكتب هنا عن زيد بوصفه صديقاً ولكن باعتباره واحداً ممن مروا بصمتٍ في الحياة، لكنه ترك وراءه ضجيجاً من أعمال إبداعية يجب أن تتحول إلى إنتاج تسجيلي لعصره ينبغي أن يرى النور.

ذهب زيد في مهمة دبلوماسية إلى "غانا" شرق إفريقيا لحضور مؤتمر عالمي، ثم عاد، لكن عافيته لم تعد معه، حيث أصيب بمرضٍ غامض غريب، حمى استوائية تعذر على أطبائه في صنعاء التعامل معها، تم إسعافه إلى ألمانيا بعد أن أصيبت حواسه كلها تقريباً بشلل غريب، أمضى هناك ستة أشهر أعيت حالته كل الأطباء أيضاً، ثم تقرر إحالته إلى مستشفى في لندن.. أحد الأطباء الشباب في هذا المستشفى تمكن من اكتشاف بعد أن تطور إلى سرطان في الدم، لم يعد بعد ذلك مناص من إخضاع زيد للعلاج الكيماوي وبالأشعة كذلك.

تعافى زيد لسنوات، وخاض فصولاً أسطورية من الصراع مع تبعات المرض لسنوات أخرى، لنحو خمسة عشر عاماً، لكنها ربما كانت الأكثر خصوبة في حياته الإبداعية كتب أثناءها مجموعاته القصصية "الجسر"، و"أحزان البنت مياسة" و"المدفع الأصفر"، وكتاب السردي البديع "الانبهار والدهشة"، وقد مثل ذلك أكثر من نصف إنتاجه الأدبي تقريباً.

أشد ما آلمني أنني لم أر زيداً قبل مرضه بقليل، ولم أتمكن من زيارته بعد ذلك غير مرتين أو ثلاث بسبب ما عصف بحياة كل منا من أحداث وتطورات، لكن الأكثر إيلاماً أنني كنت أحضر دورة تدريبية مكثفة في لندن عندما جاء إليها لاستكمال علاجه، ولم أعلم بقدومه إليها، ومن ثم فقد كان موته الذي علمت به لاحقاً أحد أقسى الآلام التي أوجعت قلبي طوال حياتي.

قصارى القول في حكاية الرجل أن السنوات مرت خفافاً وعجافاً، وجاء زيدٌ بعد زيد، ولكن "زيد مطيع دماج" ظل أزيد الكل حضوراً في القلب ووهجاً في الذاكرة.

بن غانم.. أستاذية العاشق

كدت أعرفه حق المعرفة قبل أن أراه، بل كدت أحفظه عن ظهر قلب لكثرة ما قرأته وقرأت له وتتلمذت على يديه، إنه أستاذ جيل، وضمير بلاد، ونبراس ووجدان مجتمع، أتحدث طبعاً عن "محمد عبده غانم".

جلست إلى جواره في طائرة الخطوط الجوية العراقية المتجهة من عمان إلى بغداد، التي كانت تقل كذلك عدداً من الشعراء والأدباء اليمنيين والعرب لحضور مهرجان المربد الشعري في إحدى دوراته السنوية، لم أعد أتذكَّر ترتيبات هذا المهرجان ولا السنة التي انعقد فيها، لكن المهم أن الحديث إلى الرجل خلال الرحلة كان فرصة، بدا فيها عميقاً كعادته، متنوعاً ومتشعباً إنسانياً، أعادني إلى وجهتي الأساسية، إلى اليمن الذي أحَب، إلى عدن ثقافة عدن "اليمنية الإنجليزية" بكل ما كانت تعنياه لكلينا لغتيهما.

ذلك كان عودةً إلى الروح، بل استعادةً للذات التي افتقدناها، اكتشفت فيه من خصال الإنسان ما لا أجد معها من الكلمات ما يفيه حقه، فقد كان أول من احتل مراتب الشرف عند تخرجه من أفضل الجامعات، وأول يمني من الجزيرة العربية يحمل شهادة الدكتوراه من بريطانيا عائداً إلى بلاده عام 1949.

وعندما توجهنا في رحلة إلى "الموصل" بالقطار ليلاً كنت إلى جواره في المقعد لأكثر من عشر ساعات تقريباً، وكان جلّ الحديث معه تلك الليلة مركزاً على قضايا الشعر والفن اليمني والعربي طارفه وتليده،

واكتشفت في الرجل ليس مجرد الأكاديمي والباحث، بل أدركت ذائقةً نادرةً وحسّاً فنياً عالياً ورؤية نقدية عميقة قادرة على تفكيك النص الشعري وتحليله وإعادة تركيبه، وقد كان هذا إبداعه الأهم.

في اليوم التالي، كنّا نقف أمام رقصة لمجموعة من الشابات والشباب الأكراد، ولا زلت أتذكر استمتاعه بالموسيقى المصاحبة وألوان الثياب المزركشة التي يرتديها الراقصون والراقصات.. كان استمتاعي باستمتاع بن غانم أهم من كل ذلك الطقس الجمالي الذي عشناه معاً.

لقد كان بمثابة العقل الموسوعي المفتوح والمتبحر، والمستوعب بوعي عالٍ لكل ألوان وأطياف المعارف والعلوم والثقافات.

تنوع الحديث بيني وبينه خلال تلك الرحلة بين عربية فصحى رفيعة المستوى، وبين إنجليزية "شكسبيرية" كتلك التي عشقتها شاباً، وعجزت غالباً عن وعيها كما استوعبها هو، فضلاً عن الاستمتاع بموسيقاها الفخمة.

في كتابه "فن الغناء الصنعاني" اختار بن غانم موضوعاً ليس بالأمر السهل أو الممكن بل ببحثٍ ويسبر أغوار أزمنة، ويتابع حكاية عصور من الصراع بين الفن والموت، الجمال والقبح، الإنسانية في إصرارها على الديمومة ومقاومة التسلط في عدم إدراكه لقيمة الحياة وقدسيتها.

التقط بن غانم نصوصاً من آخر القرون في تاريخ اليمن، وقدم لها في حدود ما سمحت به قيود عصره ما يجعلها الأهم مما أعطاه إنسان اليمن في ظل العسف والطغيان والجهل.

من سوء الحظ أنه لا يوجد في اللغة ما يسعف بالحديث عن "بن غانم" سوى الألم بأننا افتقدنا باحثين كباراً جادين مثله، أخلصوا لقضية العلم ما استطاعوا، ثم ماتوا وهم غير راضين عن الكثير مما فعلوه!

محمد.. الألم باسماً

في زمن مضى، قبله، خلاله، أو بعده، لم يكن من أبلغ الرجال وفطاحل الشعراء من هو أكثر من ذلك الرجل الستيني الحر، محمد أنعم غالب، أعمق مثقفي عصره ثقافة ومعرفةً وإبداعاً، وزيراً للتعليم وللإعلام، ورائداً للترجمة، وعالماً في التخطيط والإدارة، ذلك الرمز والنبراس الشجاع الذي طالما رأيته والتقيته في نهارات صنعاء وأمسياتها يأخذ بيد زوجته السيدة الكريمة "عفاف" ابنة أستاذه عبدالله القصيمي وابنتهما باحثاً عن لحظة إنسانية في الزمن، مستمعاً برفقة عائلته وبومضاتٍ من الأنس في مطاعم صنعاء، وتحديداً على قاعةٍ صغيرةٍ للطعام وللرقص والفرح في فندق رمادة حده، الحديث حين ذاك، القريب من منزله.

كان إنساناً وديعاً، هادئاً، نشيطاً رغم تقدم عمره، باسماً لا تحسبه إلاّ على جمال روحه، ونبل إنسانيته، وغزارة علمه، وثراء خبرته بالحياة والبشر.

كان شاعراً مقلاً، ولكن مُجيداً، أتقن استخدام تقنيات الشعر الحديث بالسهل الممتنع من لغته العذبة، الرشيقة، المتوترة.

أحياناً قد لا يكون من الممكن وصف مبدع كمحمد أنعم أفضل من نص قصير له يتيح معرفته كشاعر

وإنسان، ولعل هذا أفضل ما تعبر عنه قصائده القليلة.

في قصيدةٍ خالدة له ذات مغزىً إنساني عميق عبر محمد أنعم غالب عن غربة جيله بل أجيالنا اللاحقة بقوله:

"فراقنا طويل

فارقت بيتنا القديم

يقوم فوق تلٍ وحوله نمت شجيرات "النشم"

وفوق سطحه رصت أصص

للزهر والريحان

ورتبت مقاعد من الحجر

وعرشت سقيفةٌ وارفةُ الظلال

تدور في أرجائها "كركرة المداعة"

وعبق البخور

فارقته ولم أزل صغيراً

ورحلتي تطول

والأخبار لا تسر

الموت يخطف الأحباب

والبن ينفض الأوراق

أعواده تجف

والدخان يكاد أن يجف من مداخن البيوت

ولم يعد يطرق بابَنا ضيوفٌ

وكل عام أقول لن يطول هذا البين

لكنني ما زلت أحزم المتاعَ لرحلة جديدة

أقول: لن تطول رحلتي

ولن يكون راحلون آخرون

لكن رسالة بائسة حزينة

تقول إن رحلة جديدة

ينوي بها قريب

الخبز قلٌّ

وقد تطول رحلتي

قد لا أعود والصغار

آهٍ لو لم يكن لنا صغار

فلتحفظهم السماء

إن الفراق مُرٌّ"!!

عاش محمد أنعم الحياة بأفقها الواسع، مداها الأرحب، متجاوزاً صغائر الأمور، مدركاً للهم الأهم في حياة الإنسان، وهو حرية العقل في النظر والتفكير، وكرامة العيش في الأمان وعدم المذلة.

ما من شك لدي بأنه كان في طليعة قليل من المثقفين العرب وفي العالم كما أعتقد ممن أخذوا بيد الكثير من بسطاء الناس إلى "العلم" ونحو"الوعي" بأهمية أن يكونا هما أدوات الإنسان في صراعه مع الحاجة والفقر وغيرهما من مشكلات الوجود.

أساس اعتزازي بمحمد أنه لم يكن دعياً بما لا يعلم بل لقد كان في الغالب ينكر أنه يعلم، في حين أنه كان الأكثر بساطة في ملبسه ومجلسه، ربما فطن أكثر من غيره بأن البساطة هي الجمال الحقيقي عندما تقترن بأدب السلوك، ورصانة الحديث، وأناقة المظهر.

علي.. الموسوعة تسير على قدمين

عندما تقدمت لأول وظيفة في حياتي في وزارة الإعلام كان يسبقني بخطوة واحدة أمام مكتب شؤون الموظفين، لكنه في الحقيقة كان يسبقني كثيراً في كل شيء تقريباً بعشرات الأمتار، بل ربما الكيلومترات.

حينها كان "علي محمد زيد" ذلك الشاب العائد من بيروت بعد تعذر استمراره في الدراسة بالجامعة الأمريكية بسبب اندلاع الحرب الأهلية هناك لا يثير اهتمامي ببنطاله "الجينز" ولكن بكونه كتلة وازنة من الحياة والحياء، وبمستوى عال رفيع من الذكاء والخلق.

تخلق الرجل في أفضل مناخات الوعي القومي بالذات، وكان من أنضج قيادات العمل الطلابي في بيروت كما وصفه لي صديق لبناني.

أتذكر أن "علي" أخذني بعد تقديمنا أوراقنا نحو بقالة قريبة واشترى له ولي علبتين من العصير.. أهم من ذلك العصير أنه بعد ذلك اعتصرني في عالمه طوال ما يزيد على خمسة وأربعين عاماً.

سأترك للبحاثة الحديث عن صديقي العالم الفيلسوف الذي لا يضاهى في دأبه كباحث، وفي جهده كرجل علم وفكر وتاريخ وسياسة، وسأتحدث فقط عن "الإنسان" الذي يحتويه "علي".

من الأمثلة على بؤسنا كعرب ويمنيين أن كثيرين لا يعرفون قيمة "على زيد" في ميدان العلم، ولا مكانته

في الثقافة العربية المعاصرة، لم يقرؤوا أبحاثه المتبصرة وغير المسبوقة في جوانب من الفكر الإسلامي في اليمن، ولَم يطلعوا على ترجماته، ولَم يعرفوا شيئاً عن دوره كدبلوماسي عتيد في "اليونسكو" أعرق وأهم المؤسسات الثقافية الدولية، ولا عن محاولته لجعل "مؤسسة العفيف" في صنعاء رافعة لثقافة مجتمعية جديدة.

علاوة على ذلك يتقن علي زيد ثلاثاً من أهم اللغات في العالم، يتقنها كوسائل فعالة للمعرفة، وليس للتواصل وطلب وجبة في مطعم، ولَك في هذه الحال أن تتخيل أي نوافذ مشرعة أمام هذا الرجل للنظر والانتهال من معين الثقافات المختلفة.

لا يتوقف هذا الباحث والمفكر الستيني المثابر عن القراءة والبحث والتساؤل في كل طارف وتليد، حديث أو مستجد، وكأنه ما يزال طالباً يدلف بأولى خطواته إلى الجامعة.

مع ذلك يأسرك "علي " بهدوئه وبساطته وتواضعه وكأنه ليس أكثر منك، ما من مرة ذهبت فيها إلى باريس إلاّ وحرصت فيها على أن ألتقيه، عندما أخذني أواسط ثمانينيات القرن الماضي مع صديقنا المشترك الشاعر الكبير عبدالودود سيف إلى المبنى التاريخي لجامعة "السوربون" في باريس كان يصف لنا كل جزء منها وكأنه قطعة حميمة منه، حينها بدت لي هذه الجامعة كأنها هو أو أنه كان بكل "تفاصيله" هي.

اللوزي.. صديقي الشاعر

في بريق عيني "حسن" كان ثمة برق من ذكاءٍ نادر، غريب، خاطف، برقٌ يغسلك من رأسك حتى قدميك، شجنٌ يأسرك، وأسئلة شتى تحاصر فيك.

كان ذلك أول انطباع تكون لدي عنه بعد أول لقاء لي معه خلال توليه منصب وزير الإعلام أعادني خلاله إلى وظيفتي في التليفزيون بعد قرار أحمق كنت اتخذته بالهجرة إلى الكويت.

كل ذلك كان من أكثر الأمور التي جعلتني أقف إلى جانب "حسن اللوزي" الذي تصرف معي برؤية "شاعر"، رغم بعض الخلافات والاختلافات بيننا، التي كان أسوأها أنه كان يتعين عليّ تحمل كلفة الصداقة بين رجل مثله في قلب السلطة وشابٍ مثلي على رصيفها.

عرفت فصولًا حزينة من معاناة "اللوزي" قد لا يعرفها أحد بدءاً من صدمته القاسية باغتيال صديقه الراحل الرئيس إبراهيم الحمدي، وانتهاءً بشعوره بالخيانة لما اعتقد أنها كانت مبادئ "راسخة" في علاقته بالرئيس الراحل علي عبدالله صالح.

في عشرينيات عمري كانت بداية سماعي ومعرفتي باسم "اللوزي" عندما قرأت مقالاً له في مجلس مقيل للرئيس الحمدي بمنزله في مدينة ذمار جنوب صنعاء.. مقالاً منشوراً حينذاك في صحيفة 13 يونيو (26

سبتمبر لاحقاً)، حيث اعتقدته كاتباً عربياً التبس اسمه عندي بالراحل سليم اللوزي رئيس تحرير مجلة "الحوادث" اللبنانية، غير أن الحمدي نبّهني إلى أن "حسن" مثقف وشاعر يمني شاب يحسن بي التعرف إليه.

في قرارة نفسي كنت أشعر أننا يمكن أن نجد خلال نصف ساعة كثيرين لشغل منصب وزير الإعلام لكننا لا يمكن أن نجد خلال سنوات "شاعراً" واحداً بموهبة اللوزي، غير أن بهرج السلطة لم يكن يسمح بمجاهرته بذلك، وقد كنت أردد بيني ونفسي أن وجود مثقف على رأس وزارة الاعلام ربما أفضل من سواه في حين كان يرى أصدقاء آخرون أن العكس هو الصحيح.

اختط حسن لأعماله الشعرية الأولى "لغةً" في اللغة خاصة به لم يسبقه إليها أحد منذ كان طالباً يدرس الحقوق في جامعة الأزهر بالقاهرة.

مبكراً تقدم اللوزي إلى نفسه وصوته الخاص، وحمل مشروعه الشعري، فارضاً نفسه في الميدان بقوة وثبات، وذلك باجتراح نصوص شعرية لا يمكن إنكار أهميتها في تاريخ الشعرية العربية في اليمن حينذاك.
ثمة اشتباك معقد في العلاقة كان بيني وبين حسن، أساسه أنني كنت متأثراً بتجربته إلى حد التلبس، وجانب منه أنه كان رئيسي الأول في العمل مع أنني لم أحظ بأي امتياز منه بسبب ذلك، فقد كان يفصل على نحو صارم بين صداقتنا الأدبية وعلاقتنا المهنية.
لم تكن المياه على الدوام جارية بيني وبين حسن على ما يرام، فقد أخذت منه حسابات السلطة ما أخذت في علاقاته بي وغيري من أصدقائه، لكني أشهد أنه لم يؤذ أحداً، وحينما لم يكن قادراً على إنصاف أحد لم يكن سبباً في أي حيفٍ يقع عليه.

في السنوات الأخيرة أجرى حسن مراجعات عميقة ومؤلمة لتجربته في "الحكم" أكاد أجزم أنها أعادته إلى ذاته، إلى حسن، إلى الشاعر الحالم، إلى الإنسان فيه.

عبدالودود.. المبدع العظيم المكتئب

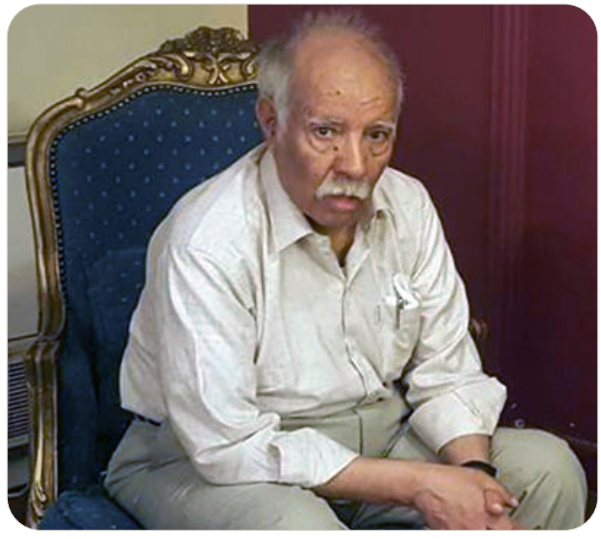

أقصر من أي صداقة أدبية عرفتها في حياتي كانت تلك التي جمعتني بالشاعر والناقد الكبير عبدالودود سيف.. كانت علاقة وثيقة جداً، وعاصفة جداً في الوقت ذاته.

عبدالودود صوتٌ شعري مهم، وناقدٌ ذو منهج لا يبارى، وذلك منذ تخرجه من كلية الآداب بجامعة دمشق، وظل كذلك حتى وقت قريب قبل أن تتوالى عليه متاعبه الصحية.

رأس عبدالودود هيئة تحرير مجلة "اليمن الجديد" التي كانت تعنى بقضايا الشعر والأدب، كما أصدر عدداً مهماً من الأبحاث والدراسات النقدية، ورعى تجارب كثير من الشعراء الشباب، وكان له حضوره الخاص في الحياة الأدبية والثقافية عموماً.

لم يكن غزير الإنتاج، لكنه كان نوعياً ومتفرداً كما عرفته أواخر ثمانينيات القرن الماضي في صنعاء، وكذلك عندما كان أطول لقاءاتنا في تونس خلال الأسبوع الثقافي اليمني الذي أقيم هناك وقتذاك.

تشرفت بتكليفه لي بقراءة مختارات من قصائده البديعة خلال أمسية شعرية في "دار بنرشيق" في تونس، وقد كانت لافتة بحق لنخبة من الشعراء الحاضرين من حيث قدرته على إجادة قصيدتي العمود والتفعيلة في آن واحد بلغة حداثية مميزة.

كان من نتيجة ذلك أن جمعتنا بتلك النخب أمسيات رائعة سمحت لنا بالمقابل بالتعرف إلى تجارِب أولئك الشعراء ومعظمهم حداثيون يكتبون قصائد التفعيلة والنثر، ونقاد ودارسون في علوم اللغة والأدب.
عاد من شاركوا في ذلك الموسم الثقافي إلى اليمن غير أنني وعبدالودود بقينا في تونس في انتظار الحصول على تأشيرتي سفر إلى فرنسا، وقد ساهم بعض الشعراء التونسيين "المتفرنسين" بتسهيل الحصول عليها.

كنت متحمساً بشدة لمرافقة عبدالودود وزيارة باريس في ذات الوقت، ولقد أغريته بعدم التوجه إلى مكان آخر غير باريس التي أعرفها وأحفظها عن ظهر قلب.. كان لدى عبدالودود بعض الشك في أنني أبالغ في وصف باريس، لكنه أقر في النهاية بأنها الأجمل من بين كل العواصم التي زارها في أوروبا.
انشغالاتنا في تونس لم تسمح لي بالتعرف على الوجه الآخر لعبدالودود، ولم يحدث هذا إلا بعد أن صرنا رفيقي سفر لوحدنا، ففي الأسفار كما في أوقات السجن والمرض تتبدى الجوانب الأخرى في طبائع كل البشر.
تبين لي أن فترة الاعتقال التي تعرض لها عبدالودود بسبب نشاطه السياسي والحزبي رغم قصرها تركت آثارها واضحة على نفسية وأسلوب تفكير إنسان مبدع مثله شديد الاعتداد بكرامته الشخصية.
وقبل هذا فعبدالودود مثل كثيرين غيره من المبدعين لا تنطبق صورته في إبداعه الشعري والنقدي تماماً مع صورته في حياته اليومية كإنسان، إذ كثيراً ما تعاقبت عليه نوبات من الاكتئاب، وساورته العديد من الشكوك في ما حوله ونوايا من حوله.

ذكرت له في فرنسا أن الباريسيين تحديداً يمعنون في النظر إلى طريقة الشخص في ارتدائه ملابسه ومدى تناسب ألوانها، فكان أن سألني: "هل تقصد أن تسريحة شعري الآن لا تناسب لون حذائي"؟
لم أتوقع أن يستقبل عبدالودود ملاحظتي بهذا القدر المفرط من الحساسية، لكنه كان كذلك في أمور كثيرة.

كنت فخوراً برفقة شاعر بأهميته إلى إحدى العواصم التي أحبها، وسعيداً بقضاء عبدالودود فترة راحة واسترخاء بعيداً عن حياته المتوترة في صنعاء، لكنني في الوقت نفسه لم أتوقع أن يتسبب اختلاف النظرة والطباع والمزاج بيننا في كل تلك المتاعب.

ذلك كان الواقع مع عبدالودود الذي أشهد أنه كان في الغالب طيباً، ونبيلاً، وحراً كريماً، لكنني لم أكن أفهم مالذي يغضبه ولا ما يرضيه، ومتى هذا أو ذاك، ولا أسبابهما، ما جعلني أؤمن أن عبدالودود الشاعر والمبدع كان على المستوى الإنساني كائناً حزيناً، وغامضاً، وصعب المراس.

كان هادئاً وعميق التأمل خلال رحلتنا إلى باريس بينما كنت شاباً جامحاً لا أتوقف عند كثير من الأمور التي كانت تستوقفه.. كنت غالباً أعيد ذلك إلى فارق السن، وإلى اختلاف شخصيتينا، هو بنظرته للأمور بدقة، وبتحوطه، وتردده، وحساباته، وأنا باندفاعي، وعفويتي، وانفتاحي على الحياة، وسخريتي من مصاعبها، وكذلك إلى الظروف التي عاشها كل منا، والمعاناة التي عرفها عبدالودود.

ومنذ حطت طائرتنا في مطار صنعاء عائدين من باريس حمل كل منا حقيبته وافترقنا دون وداعٍ على أملٍ بلقاء آخر في ظروف أفضل، لكنه لم يتم.

التحية والاعتزاز بعبدالودود، الشاعر الذي أحببت إبداعه، والإنسان في كل حالاته.

عبدالباري.. قصيدة النثر الكبرى

لابد أنه حاول كتابة الشعر يوماً لكنه لم يكن بالضرورة محتاجاً للاستمرار في ذلك، فقد كانت حياته لوحدها قصيدةً نثر عصماء، معلقة مبهرة، وديوان شعرٍ أنيق.

ذهبنا معاً إلى الجامعة، هو في سن متأخر قليلاً، وصديقنا المشترك الشاعر الراحل إسماعيل الوريث.

أضاف عبدالباري بذهابه إلى الجامعة جامعة أخرى، إذ لم يكن من المأمول -في نظري على الأقل- أن تضيف إليه الجامعة، أي جامعة أكثر من قرطاس يذهب به إلى ديوان شؤون الموظفين.

قبل ذلك ترأس عبد الباري العالم، اللغوي، المؤرخ الأدبي هيئة تحرير صحيفة "الثورة" المطبوعة الرسمية الأهم في البلاد حينذاك، كان ذلك اعتماداً على غزارة علمه وسعة اطلاعه وليس اتكاءً على المنزلة العلمية لأسرته ومنطقته، لكنه مع ذلك لم ينج من الغيرة والكيد والنميمة.

عرف عبدالباري صنوفاً من القهر بسبب رأيه السياسي، وذهب مرات إلى سجن "الأمن الوطني".

في كل مرة كان يسمع عبدالباري نداءً له من خارج منزله لم يكن يخاف أو يتهيب بل يستجيب ويخرج حاملاً معه بطانيته تحسباً لدعوة أخرى إلى "حبس الجهاز"، الذي اعتاد عليه بسبب نشاطه السياسي قبل إعلان "التعددية" عقب وحدة العام 1990.

قبل ذلك من الوقت كان عبدالباري بالنسبة لي مثالاً يقتدى، جبهة عريضةً من القيم والمُثل يجب القتال في صفوفها، أمعنت كثيراً في بناء ما يمكن أن يشكل أرضية معرفية صلبة للعلاقة مع "بن طاهر" في سنوات لاحقة، لكنه فاجأني بعد ذلك بأن المسألة كانت أسهل من ذلك بكثير!

لم يكن من العسير عليَّ إقناع عبدالباري بتحويل رحلة وفدٍ أدبي يرأسه إلى مهرجانٍ شعري من جهة إلى جهة أخرى قبل الجهة المقصودة، لمجرد أنني كنت أريد خلوةً روحيةً وعقلية معه حتى تحت أنظار الجواسيس والمخبرين.

من الغريب أن عبدالباري كان يستجيب لذلك بسهولة، بل وينزل إلى ردهة الفندق بإزاره التهامي الخاص فيصرف بذلك أي شك في مقاصد هذا اللقاء.

تساقط من ذاكرة عبدالباري في السنوات الأخيرة الكثير من تلك القصص والذكريات، لكن الأهم أن عبدالباري الذي جاء إلى لندن قبل عامين متسائلاً عني بشدة، وحريصاً على لقائي ظل فيه، مبرهناً على أنه ما يزال ذلك المعدن الأصيل الذي لم تغيره السنون، الكبير الذي لم تزده الأعوام سوى المزيد من النضج.

اكتملت قصة عبدالباري الإبداعية وبيولوجيا في أقل حال، لكن "كتاب" الرجل لم يكتمل.

كم يتوجب اليوم على عبدالباري أن يتوقف عن الكتابة الآخرين، عشرات الذين قرأ، وعاش، وواكب تجربتهم من الشعراء والكتاب والساسة والآخرين، وأن يروي لنا قصته حكاية "بن الأهدل" التي تأخرت كثيراً.

آمنة.. فيلسوفة الضوء واللون

لم يكن لأحدٍ أن يوقد فيّ من الإثارة أمام الفن والجمال مثل ذلك الذي فعلته في حياتي الفنانة الفيلسوفة، صاحبة الإبداع العالمي المسكوت عنه "آمنة النصيري".

أخلصت هذه الجميلة لقضية "الجمال" لدرجة تشبه التصوف، متخليةً عن إغراءات كثيرة في الحياة كانت متاحةً لأنثى جميلة مثلها، مثلما لم يخلص لها أحدٌ من مدعيها، فعلت أبدع من ذلك الكثير في حدود ما وَعَيت، في حدود عالمنا في الشرق على الأقل.

درست آمنة المدرسة الروسية في الفن، أوسعتها فهماً حتى العشق، وعتها بعمقٍ حد الاستغراق بها وفيها، وعملت عليها بإخلاص وهدوءٍ وثقةٍ ودأبٍ وتواضع، وبتفوق حتى على بعض أبناء وبنات هذه المدرسة، وتدربت طويلاً في مراسمها، وأنفقت الكثير من سنوات شبابها تحاول امتلاك ناصية اللون والظل على اللون وفيه، ومدلولات الألوان في التعبير عن الفكرة، وتشكيل الأبعاد والخطوط في لوحاتها.
كثيراً، بل لأيامٍ، ولشهور، وسنوات كنت وما زلت أقف أمام لوحات آمنة، الورقي منها ثم القماشي، ثم

بمحتلف تقنيات اللون الأخرى.. وقفت لسنوات مأخوذاً أمام جمالٍ باذخٍ في ما ترسم، لكنني عشت كثيراً أيضاً في حالات تحدٍ مع مغزى وغموض وأسرار ما ترسم، فآمنة لا تمنحك لوحاتها بسهولة بل تمتحنك لبلوغ مقاصدها، وتختبر ذائقتك في فهم ما ترسم.

منذ عقدين على الأقل وأنا أحتفظ في مكتبتي برسومات استثنائية لآمنة.. رسومات تكاد تستنطق اللون أن يقول لك ما لا يقول، وتشكيلات من الأبعاد في الصورة لا ترى حتى حين ترى.
غير أن الصورة الأهم في كل ما ترسمه آمنة هي "آمنة" نفسها، القلب، والعقل، وروح الإنسان التي تقف وراء كل هذا المستوى الرفيع من الإبداع.

لست ناقداً تشكيلياً أو قارئاً جمالياً لكنني أستطيع القول إن في فن آمنة ما يستحق التوقف والتأمل والنظر والدراسة بإمعانٍ، فالضوء المسكوب من أصابعها لا يمكن له إلاّ أن يضيئ مساحات شاسعة في ما لا ندركه عن القدرات التعبيرية للفنون البصرية، والفكرة المعبّر عنها في رسوماتها لا تُخفى وإن لم يكن فهمها بالنظرة الأولى إليها ممكناً.

الأهم في أهم ما رسمته "آمنة" كان الإنسان في كل تجلياته ومآسيه، إنسان المدينة والريف، إنسان من مضى واستودع لوحاتها بعض أسراره، الإنسان الذي ظل أبداً في الإنسان والأرض والتاريخ والحياة بكل نقائضه وصراعاته وأحزانه ومآسيه التي قد لا تعيها "آمنة" نفسها لكنها تظل واضحةً غالباً بشكلٍ جلي في كثيرٍ من لوحاتها.

الرازحي.. أنا الآخر

كأن أحدنا خرج من الآخر إلى سواه، لكننا بقينا واحداً في الحياة، تشاطرنا ذات الحكايات والغوايات والحماقات، وعشقنا نفس المدن والأزمنة والكتب، وتشاركنا معاً قراءة ملاحم العرب والفرس وأساطير الرومان والإغريق وغيرهم، من "جلجامش" إلى "الشهنامة" إلى "الإلياذة" و"الأوديسة" و"المهاراباتا" وغيرها، كنت أنافسه الجديد بالجديد، وأبادله قراءة الرواية برواية، من أدب اليابان إلى أمريكا اللاتينية مروراً بالعالم بينهما، لكن "عبدالكريم الرازحي" كان الأسبق والأعمق مني في القراءة، وكان الأجرأ والأكفأ مني في امتطاء صهوة اللغة، وتطويعها لما يشاء غير أنني لم أتخل لحظةً عن متابعة تجربته في القراءة، ولَم أتوقف يوماً عن اقتفاء أثره في كل اتجاه في المعرفة ذهب إليه.

حيثما مضى عبدالكريم في القراءة كنت أمضي وراءه، ربما كنت أتخلف عنه قليلاً لكنه ظل بوصلتي ومنارتي ونبراسي لسنوات طوالٍ طوال، حتى هذا اليوم الذي افترقنا فيه مكاناً منذ نحو ستة عشر عاماً. لم يحدث أن حسبت أنني قادرٌ على تجاوزه شعرياً ولكن بوسعي الادعاء أنني امتلكته إنساناً حيث لم يكن عبدالكريم يقاوم أي طلب مني في لقائه والحديث معه حتى عندما يكون مستغرقاً في أكثر قراءاته

أو كتاباته عمقاً، كان يشعرني بالغرور بقدرتي على انتزاعه منه والسير ليلاً أو نهاراً معه في شوارع صنعاء وغيرها من مدن الدنيا التي اجتمعنا فيها.

لا شيء كان يساورني في أن محبتنا يمكن أن تنفصم لأي سببٍ مهما كانت قوته.

كان عبدالكريم لا يتردد في السخط في وجهي بسبب قربي من "السلطة" كمذيع شهير في التليفزيون حينذاك شأنه في ذلك شأن آخرين من الأصدقاء، لكن ما كان يميزه أنه كان يفعل ذلك بثقة الواثق المطمئن، وبإيمان المؤمن المطلق بأنني لا يمكن أن أكون جزءاً من أي سلطة مهما غلت بدلاتي، وتلونت ربطة عنقي، وتعددت روائح عطري، كنت لا أنفك عن الشعور بأن عبدالكريم مثل بقية أصدقائي يدركون أنني جزءٌ صميمٌ حميمٌ من مجموعتهم وفصيلتهم وجيناتهم يستحيل الفكاك عنها.

كانت لعبدالكريم وما تزال كما أعتقد ذاكرة ثرية مثل سهل السحول في "إب"، أو وديان "العدين" و"بعدان" و"ريمة" و"خبان" و"الحجرية" و"حجة" و"المحويت" وتهامات "مأرب" و"الحديدة" وغيرها، خصبة، خصبة، خضراء، خضراء.. لعل مثل هذا ما يفسر انتقالات وترحال عبدالكريم في شعاب البلاد وجبالها رغم سنوات عمره فوق الستين لا يستطيع العيش بدون تلك الذاكرة!

عبداللطيف.. الربيع الذي مَرّ

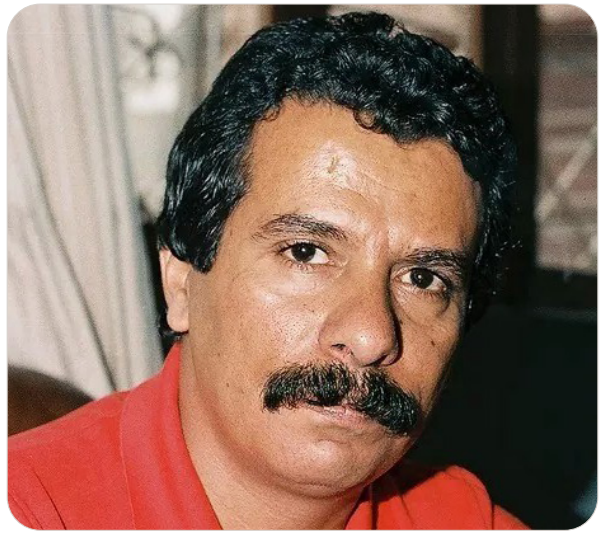

مثل ذلك الموسم الذي عبَرَ في حياتي لم يمر فصلٌ كـ"عبداللطيف الربيع" الشاعر الهازئ بقوالب التفكير التليدة، مهندس اللغة والأفكار، الساخر من كل نمطٍ مملٍ في الحياة.

عاش عبداللطيف بيننا أكثر من حياة فينا، كان أكثر من إنسانٍ واحد، شاعراً، كاتب عمود ساخراً، رسّاماً، مهندساً معمارياً، ومثقفاً سياسياً، وآخرين، آخرين، نعم آخرين، رجلاً مازحاً، شعبوياً، فضولياً، لكن "الإنسان" في كل هؤلاء كان هو القابع المتسيد في عقل وضمير ووجدان عبداللطيف.

اختصمت كثيراً مع عبداللطيف لكن كل خلاف معه كان ينتهي عادةً بسلاسةٍ وبساطةٍ كأنه لم يكن، وذلك بمجرد اللقاء، كأنه كان بلا ذاكرةٍ، أو أنني كنت أبلهاً بلا كرامة مع هذا "المخلوق" الطيب، الحبيب، العجيب.

لم أكن أطيق تخيل نفسي أن أعيش في صنعاء بدون فنان مثل عبداللطيف، فبدونه لا تشعر أن صنعاء صنعاءُ، ولا الحياة فيها حياة.

صنعاء القديمة، معماراً وفناً كانت هاجس عبداللطيف، الحفاظ عليها كان قضيته منذ عاد من جمهورية "المجر" السابقة حاملاً شهادته في الهندسة المدنية.

كان صديقي مشاغباً لا يكف عن تكسير معايير الذاكرة، وتجاوز المألوف في اللغة، وتحدي عروض الشعر، ونقد نواميس التاريخ، وتفكيك قيم التراث، ولكن عندما يصل الأمر إلى معمار "صنعاء القديمة" لم يكن عبد اللطيف يقبل المساومة أو أنصاف الحلول أبداً.

كانت "صنعاء القديمة" توازي عنده صورة والدته، والحفاظ عليها يعني "الفخر" بشرف الوالدة.

عندما أراد عبداللطيف أن يستخدم المسطرة والقلم لبناء منزل يتماهى مع خلفيته الدراسية خرج بعيداً عن صنعاء القديمة، لكنه مع ذلك بنى بذات الشغف منزلين حديثين ولكن بروح صنعاء القديمة أيضاً.
كان عبداللطيف النزق الغضوب يجيد إسداء النصيحة لي والآخرين بإدارة ظهورنا للسياسة والانصراف إلى كل ما كنا قد بدأنا العمل عليه من المشاريع الأدبية، لكنه كان بارعاً في عدم العمل بما ينصح به.
كان يكتب بلغة جديدة على صحافة عصره مقالات بديعة في السياسة لجريدة الحزب الاشتراكي، الذي انتمى إليه علانية بعد وحدة العام 1990.

كنت خارج البلاد عند منعطفٍ سياسي عاصف أظن أنه أنهك عبداللطيف، وعندما اتصل بي صديق مشترك كبير، وأبلغني بوفاة عبداللطيف، كان من نتيجة هذه الصدمة أنني لم أتمالك نفسي، بكيتُ كما لم أبك في حياتي حتى في أشد الفقدانات لمن أحببت من أهلي وأصدقائي.

كأنني قررت أن أموت لكنني لم أمت، عزمت في حالة شديدة من الحزن والإحباط البقاء أطول فترة ممكنة خارج مدينة لم يعد فيها عبداللطيف!

عمر.. الواحد المتعدد

بأكثر من خمسة وثلاثين مصنفاً وعملاً أدبياً، وفنّياً أيضاً سبقني "عمر عبدالعزيز" إلى معتركات العقل، زُرق البحار في لوحاته، والمحيطات والسماوات في تجلياته، فساح الآفاق والمدارات في أبحاثه، أبحاثه في قلب التاريخ، وليس الوقوف على قشرته.

في الطريق إليه شوقاً بلهفة لجديد قراءاته، في الابتعاد عنه غضباً منه بمسافاتٍ أيضاً لا يمكن لعمر أن يترك لك مساحة بعيداً عنه للعيش براحة، يظل مهيمناً عليك بلوحاته، متنوعاً في علاقاته، وبإبداعه في وجودك به ووجوده بك، إنسان بحضوره "إنساناً" حقيقياً في حياته وحياتك.

اختصمت بشدةٍ مع عمر، لأوقاتٍ امتدت لأيامٍ وأشهر، وربما لسنوات، لكن عمر ظلَّ يستبيحني حتى في أوقات العتاب والغياب بنصوصٍ في الفلسفة وأبحاث في اللغة والتاريخ، أكثر ألف مرة من آخرين "معروفين" كثيرين حاولوا استغفال الوعيِ والذاكرة والقفز على منصات الإبداع، بأعمال لا إبداع فيها سوى تمارين الإنشاء والسخيف من الكلام، ولا يمكن لها أن تجد لها مكاناً في فن الأدب، أو تاريخاً في تاريخ الرواية، ولا علماً في علم اللغة.

تحيط بجدران بيتي لوحات عمر كإحاطتها بآفاق روحي، وتزدان رفوف مكتبتي بأعماله وأبحاثه ودراساته منذ أعوام، لسبب بسيط هو أن عمراً المبدع عمر، لا هو مبدعٌ بقرارٍ "رسمي" ولا بنفحة من حاكمٍ هنا أو هناك، ولا بانقلاب على هذا الحاكم أو ذاك، ولا بركوب الموجات للصعود إلى هذا الموقع أو ذاك، عمر هو عمر، صانعٌ لأسماء يستحيل أن تصنعه.

عمر ترسانة زاخرة من الوعي والخبرة والذكاء، يحتاجه بشدة من لايحتاج إليهم ممن يملكون أسباب القوة والسلطة والثراء، لكن قلمه وريشته يجلبان كل شيء إليه، دون تعب، ولا توسل، ولا ابتذال، بل بكل كرامة وسمو ورُقِي.

درس عمر الاقتصاد في "رومانيا" التي أجاد لغتها مثل خيرة أبنائها، وظل متقناً لها حتى بعد سنوات طويلة من التخرج والعودة إلى اليمن منشغلاً بهموم أخرى.

يدرك عمر قيمة النقطة في الكتابة، أهمية الفاصلة في المعنى، بدلالات التشكيل في النصوص.
من العجيب أنه يتابع كل جديد، بتركيز شديد، وحين تستمع منه لا يمكنك الملل من متابعة حديثه لساعات عما يعرف.

عمر شخصية إشكالية بحق فأكثر ما كان يفتقر إليه هو "الوعي بالاتجاهات" في الزمان أو المكان، فقد كان لا يسير إلى حيث يمشي حين يسير، بل يحتاج دوماً إلى مرشد أو دليل، السبب في ذلك أن عقله في الطريق كان يشبه "رداراً" ينشغل بمراقبة كل جديد في كل اتجاه يذهبُ إليه ومن أي إتجاه يجيء منه.
كم كان من المقلق لي خلال لقاءاتي به في لندن، في بيتي أو بيته، أو في مكان عام آخر أن أتركه يأتي إليّ بدوني أو أن يعود إلى منزله دون أحد.

ابن منصور.. الذي لم يقل يوماً "نعم"

قريباً منه حتى التماهي به، وبعيداً عنه حتى تلاشى كلانا عن الآخر، تبدلت علاقتي بـ"محمد عبدالسلام منصور" الذي عرفته حتى الغموض وجهلته حتى الوضوح.

كثيرون لا يعرفون إلاّ "القليل" عن سيرة محمد الممتدة في زمنه وأمكنته في العقود الخمسة الماضية من تاريخ البلاد، لكن قليلاً جداً هم من يعرف "الكثير" عنه.

أقل وصفٍ يمكن أن يطلق عليه أنه مثقفٌ سياسي، فقيهٌ لغوي، وشاعرٌ كبير، وأكثر ما يمكن وصفه به أنه "إنسان" عركته الحياة، وطحنته التجارب، وجعلت منه آلامه الكبار محمداً الفيلسوف، الحكيم، الصبور الذي نرى.

كتب محمد قصيدة العمود بمضمون جديد، وأبدع في شعر التفعيلة بتمكن ووعي لمعنى التجديد فيها، وكذلك كانت نصوصه الأدبية الأخرى، وحتى مقارباته في مختلف قضايا الشعر والنقد والأدب والسياسة عموماً.

ما من نص كتبته شعراً أو نثراً، وأبدى عليه محمد ملاحظة إلاّ استقام وتحول إلى قطعة من الأدب، وما من قصيدة كتبها إلا وأعجزتني كل معارفي أن أجد فيها خللاً أو ركاكة.

يشكل "بن منصور" حالة نادرة من بين كل المبدعين الذين عرفتهم، في قدرته على الجمع بين ما يشبه المتناقضات، فهو علاوة على اشتغاله بالإبداع الأدبي اشتغل بالسياسة في وقت مبكر، ودفع ثمناً كبيراً لذلك، كما أنه درس العلوم الشرطوية، وعمل لوقت قصير ضابطاً مهنياً محترفاً، وحتى عندما أزيح من مواقعه الأمنية إلى مجالات مدنية أبدع في عمله الإداري بجدارة.

من سوء حظي أنني لم أتتلمذ على يديه إلا في مرحلة متأخرة، وذلك خلال جلسات المقيل التي جمعتنا في منزله أو منزلي، لقد شعرت بالكثير من الندم لتأخر معرفتي بهذا الإنسان الكبير علماً وأدباً رغم علاقتنا بل قرابتنا الأسرية أيضاً.

لقد كان من الغريب أنني لم أفطن إلى ذلك إلا من خلال صديقنا المشترك المثقف السياسي المغدور "جار الله عمر"، الذي زامل محمداً خلال دراستهما علوم الفقه واللغة في "المدرسة الشمسية" في ذمار، قبل التحاقهما معاً بكلية الشرطة في وقت لاحق خلال ستينيات القرن الماضي.

جارالله الذي كان يتابع تجربتي من عدن قبل قيام وحدة شطري اليمن عام 1990 كان مندهشاً من أنني لا أعرف "محمد عبدالسلام منصور" ابن مدينتي، وعندما جمع بيننا ذات مقيل في منزلي بصنعاء اندهش جارالله أن علاقة نسب وقربى تربطني بمحمد.

لكن الأهم من ذلك أن تجربة "محمد" الأدبية وحتى السياسية استرعت انتباهي بقوة إليه، وأثارت في داخلي الكثير من الأسئلة حول لماذا يتعين على المثقف السياسي أن يتوارى في منزله أو أن يكون في آخر الصفوف، أما الشاعر فقد لا يكون في منزله ولا في نهاية أي صف.

ربما يكون هذا أقصر نص كتبت مما كان يجب أن يطول من الكلام، لكن الحقيقة أن الألم مما يحدث، بل الزمن أيضاً أخذ مني ومن صاحبي ما أخذ، لكنني تعبت في منفاي بعيداً عنه، غير أن الأجمل فيه أنه قال "الكثير" في "القليل" الذي قال، ورغم كل البؤس واليأس اللذين أحاطا به خلال سنواته الأخيرة ما يزال صامداً، وبوصلته لم تفقده الإشارة إلى الاتجاه الصحيح!

الغابري.. المؤرخ الفوتوغرافي

الصورة لحظة محنطة، تجميدٌ لواقعة معينة في الزمن أو لملمح محدد على الأرض، في وقتٍ ما.

استخدم كثيرون آلات التصوير لمجرد التقاط الصور، لكن قليلين هم من أتقن في لحظة انتباه توظيف تلك الآلات في اقتناص الفرصة، واصطياد الصورة.

المسألة ليست الضغط على زر لأخذ صورة، لكنها بالنسبة للمصورين المبدعين هي وضع مركز الجمال في ما رأوه قبل زواله زمنياً أو مكانياً في "إطار" خاص يحدد مكمن الأهمية فيه بصرف النظر عن مضمونه.

لعل هذا ما أدركه بوعي جمالي فني، وبإدراك سياسي وإنساني عال "عبدالرحمن الغابري" حيث كنّا نشاهد ما يشاهده لكن عيوننا لا تملك ذلك "الكادر" الذي تتمتع به عيناه، وتحيط بجوهر المشهد وليس بما حوله.

قدم الشاب النحيل الخارج من محمية "عتمة" الخضراء إلى عالمٍ جديد في ذمار وبعدها إلى صنعاء، ثم دمشق حيث درس الموسيقى وتخصص في العزف على آلة الجيتار.. وبعدها إلى عالمٍ يستبدل العين بعدسة "الكاميرا" وربما بقية الحواس لاحقاً بوسائل جديدة أخرى.

المهم في الأمر أن "عبدالرحمن" الذي عرفت كان يبدو لي "طاقة" من ذكاء تريد التعبير عن نفسها بكل طريقة ممكنة، ولكن من خلال "الفن" فقط، ولهذا تنوعت انشغالات عبدالرحمن بعد تخرجه من إحدى

الجامعات السورية بين العزف والغناء والإنشاد والمسرح والصحافة، لكن إبداعه الأساسي تجلى بوضوحٍ في مهارته لاحقاً في توظيف عدسات التصوير، وفي تطويعها لخدمة ما يريد.

قرأت في الغرب الكثير عن مصورين معروفين فعلوا تقريباً ما فعله عبدالرحمن مع اختلاف إمكاناته بالمقارنة إلى إمكاناتهم الفنية المتقدمة منذ عقود طويلة، لكن عبدالرحمن قد لا يقل حساً ووعياً عنهم.

عرفت كذلك أن عدداً من كبار المصورين الصحفيين لم يقلوا أهمية عن أبطال صورهم من زعماء ومشاهير وصناع أحداث، بل كان المصورون وأبطال الصورة شركاء في ذات التاريخ الذي التقطت فيه الصورة.

غير أن من المؤسف أن أحداً في اليمن أو العالم العربي كان لا يلقي بالاً إلى دور المصور في حفظ وقائع الحياة وتبدلات الأرض، ولا ينتبه إلى أن المصور الصحفي مؤرخ، وذاكرة، و"صاحب إرشيف" يمكن أن تتحول وثائقه المصورة إلى مادة للدراسة والبحث.

أطلق عبدالرحمن مبكراً اسم "شادي" و"زرياب" على نجليه ما عكس في رأيي تأثره في دمشق بما عرفه عن فنون العرب في بلاد الأندلس، وقد كان لكل منهما نصيب من اسمه، حيث ذابا في مناخ عبدالرحمن واستلهما منه الكثير في إبداعهما الخاص.

عمل الغابري مصوراً صحفياً حيث سجل أحداثاً مهمة، ووثق لها في إرشيفه على نحو منظم، لكن أكثر ما يلفت الاهتمام في أعماله هي تلك الصور الأخاذة التي التقطها من الطبيعة لمدن وجزر وشواطئ وبحار عكست في تقديري ترجمة لمصادر الوعيِ التي تكونت لديه في طفولته خلال بواكير عمره في "عتمة" المنطقة الأكثر اخضراراً في قلب البلاد، والمجتمع الفلاحي الأروع بساطة ومحبة وسلام.

تتراءى لي صور عبدالرحمن في بعض المعارض التي يقيمها أو يشارك فيها هنا أو هناك، وكذلك عبر وسائل التواصل الاجتماعي لكن شخصه يغيب ويتعذر الاتصال المباشر معه، وعندما يعود تتوارى صوره لانشغاله جاداً بالعمل على إحياء مخزونه الهائل من المواد "الفيلمية" التي يجتهد لإنقاذها، ولوضعها مجدداً في "فورمات" حديثة، لكنه لا يلبث أن يحضر مجدداً مع صوره، بهياً، ضاحكاً، وسعيداً بما أنجزه في رحلة الحياة.

الوادعي.. حرقة الأسئلة

يُحدث اهتزازات عميقة في بنية الوعي، وانزياحات هادئة للمسلمات الصلبة في العقول، بطريقة جادة وسلسة في آن واحد تجعل منه "المفكر" الأكثر أهمية اليوم في اليمن وربما العالم العربي، لا ينازعه على هذه المنزلة أحد بالقياس إلى ظروف حياته ونشأته، وعمره، وزمانه ومكانه.

لم يحدث أن قرأت لـ"حسين الوادعي" نصاً ضعيفاً أو طرحاً هزيلاً، بل قراءات ثاقبة في عمق القضايا التي يتناولها، مستعيناً بمنطق لا تعوزه الحجة القاطعة أو البيِّن من البيان.

كثيرون لا يعرفون من أي خلفية معرفية جاء هذا الباحث المتخرج من كلية الإعلام في جامعة صنعاء، لكن الذين يعرفونه تتملكهم الدهشة من قدرته هذا الرجل الأربعيني على الذهاب إلى حيث أراد، وأن يكون ما أراد لنفسه أن يكون، والوقوف بثبات في قلب المعرفة، وامتلاك هذا القدر من جسارة الرأي والرؤية، مع قدر عال من التواضع ودماثة الخلق.

لم أعرف حسين الذي ربما يصغرني بنحو خمسة عشر عاماً، ولم نلتق من قبل في أي مكان إلا عبر مكالمات هاتفية قليلة، ورسائل محدودة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، لكنه الوحيد رغم ذلك الذي وجدته

صديقاً لعقلي، كأنني أعرفه منذ زمن بعيد، قريباً مني، بل أكثر من أعادني إليّ، واستعادني إلى روحي وذكرياتي، إلى حين كنت شاباً أحلُمُ مع رفاقي بإعادة "إصلاح العالم"!

كنت منذ زمن أتأمل عن بعد، وفي صمتٍ تجربة حسين، وأدرس مراحل تطورها، في إتقان الكتابة، وكثافة المعرفة، وذكاء التحليل، وعقلانية الاستنتاج.

بأدواته المنهجية الخاصة نبش حسين في جذر الموروث التاريخي لعديد من الأديان والفلسفات والعلوم، أزال جبالاً من الغبار على ما تراكم فوق ذلك الموروث، واستطاع صقل جوهرها، وإدراك حلقات الربط والعلاقات بين كل ذلك، طارحاً أسئلةً كبرى، وبالغاً إلى خلاصاته الخاصة بصحة هذا الأمر أو عدم صحة ذاك. فعل حسين ذلك بطريقة علمية نزيهة ومحايدة ودقيقة في الأغلب أيضاً، حتى ليكاد يبدو "ديكارت" جيله، وأحد أهم من يشتغلون على مهمة التنوير وتثوير العقل في زمنه.

في زحمة الأدعياء والهواة التي أتاحتها وسائل التواصل الاجتماعي لكل من هب ودب، وأتى من كل حدبٍ وصوب، جاء حسين ليجعل من صفحته على الفيسبوك محطة لا يمكن لأي قارئٍ حصيف تجاوزها، بل لقد جعلها ملتقى لمثقفين رائعين من شباب وشابات عديدين على اختلاف مشاربهم، ودرجات التوافق أو الخلاف معه.

يعيد حسين اليوم بطروحاته الخالية من أي تعصب طائفي أو سياسي تقديم صورة اليمن، اليمن الحقيقي، البلد الواحد الواعد الجديد، بل صورة الإنسانية كلها التي يجب أن تعود حاضناً لقيم الحرية والتعايش والسلام برغم كل الجراحات التي مزقتها.

صحيح أن القيود المهنية والقانونية التي يلتزم بها حسين بحكم موقعه في منظمة عالمية كالأمم المتحدة لا تسمح بجعله ضيفاً على منصات الإعلام ليتحدث إلى أوسع نطاق من الناس حول العالم، لكنني متأكد أن كاتباً مثله لن يمر في النهاية بصمت، بل سيكتب عن اجتهاداته الكثير، غير أن من المهم في رأيي أن يضم أولاً كتابات حسين كتاب، بلكتب!

منصور.. الحالم وشاهد المأساة

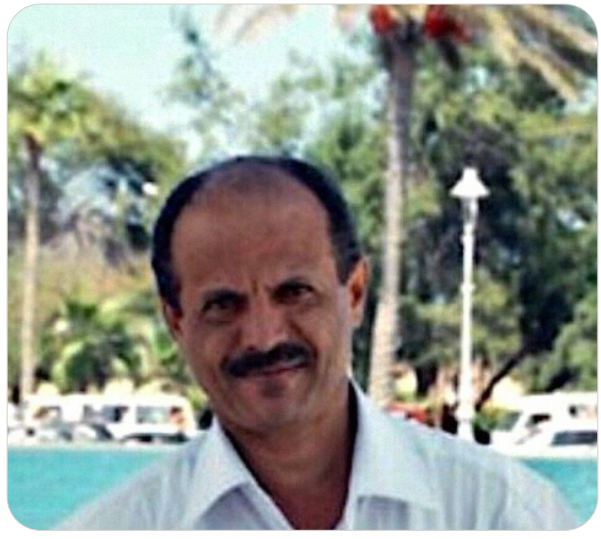

رجلان، صحفي ظاهر، وشاعر مستتر، داخل "منصور هائل" لم يتنازعاه، بل تكاملا معاً، وأمداه بما يجعل الصحفي شاعراً حين يكتب، والشاعر سهلاً ممتنعاً حين يروي.

عبر قراءة واحدة لكتابه "أطياف عدن.. هذيان الحطب" كانت قراءة واحدة تكفي لمعرفة منصور، ومن خلال عالم افتراضي ومحادثات هاتفية قليلة عرفت منصور كما لا يمكن أن أعرفه في الحياة قط.

تشاغل منصور أسئلة كثيرة حول الوجود، وحتمية الألم في حياة الإنسان، لكنه يرد عليها بهدوء حكيم، وثبات فيلسوف، ساعياً إلى العثور على أجوبة لها من داخلها.

عاش منصور مأساة انهيار "حلم الاشتراكية" في جنوب البلاد، وتضمخت جوارحه بالدم الذي سال في البيوت والشوارع والطرقات، واكتوى بفقدان أهلٍ ورفاق وأحبة.

افتقد منصور خلال تلك المأساة كثيرين على رأسهم صديقه المثقف، الشجاع، أيقونة ذلك الحلم " فاروق علي أحمد" الذي افتقدته الحياة والكرامةُ والآدمية أيضاً.

عرفت "فاروقاً" عن بعد، وتألمت كثيراً لخسارة البلاد مثقفاً مثله في شرخ شبابه، ولم يكن لي من وسيلة إلى الوصول إلى حقيقة ما جرى له، وكيف انتهى به الأمر إلى ما انتهى.

وأخيراً جاء منصور بكتابه المشار إليه، سرد الرواية بأدق تفاصيلها، ورسم الصورة الكبيرة للكارثة بجميع أبعادها، كما لا يمكن لفاروق نفسه أن يقولها.

في نصوصه القليلة التي قرأتها ينم "منصور" عن كاتب عملاق تكدس في أعماقه عصرٌ من الوجع، أنضجت قلبه شموسٌ من العطش إلى وطنٍ مستحيل، لكنه ما يزال متشبثاً بحلمه في أن الحياة لا تحتمل اليأس، ويمكن يوماً أن تكون أفضل.

ذهب منصور إلى تونس مع زوجته الصديقة الرائعة "أروى عبده عثمان"، التي سبق لها أن قاتلت على حفظ ذاكرة الأرض والإنسان هناك في اليمن خلال السنوات الماضية من خلال مؤسستها "بيت الموروث الشعبي"، ولكن ظل لصمت منصور في تونس ضجيج، أسئلة حيرى، وهدوء يشبه ما قبل العاصفة.

في محطة منصور الأخيرة مع "أروى" في تونس كتب منصور ما كتب، كلاماً يشبه الشعر، وشعراً لا يشبه الكلام!

في آخر زيارة لهما إلى مصر أدخل منصور وأروى ابنتهما "مريم" معهداً لدراسة فن العزف على آلة العود، فخرجت مريم الموهوبة بعد ذلك مريماً أخرى، عازفة ومؤديةً مبهرة.

يتجلى الآن منصور وأروى في صورة مريم.. مريم التي تلخص اليوم روحين لوالديها في روحٍ جديدة تقول لك إن منصور وأروى باقيان، رغم انتكاسة الحلم "الاشتراكي" الذي آمن به والدها، و"ثورة الربيع" الذي حلمت به والدتها!

© دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة